رحلة المشتاق

للحج والعمرة

د/ خالد أبو شادي

خمس دقائق فقط

قبل أن تبدأ القراءة ، أعط نفسك خمس دقائق .. خمس دقائق فقط..

ادعُ الله فيها أن يفتح قلبك لتتلقى الأنوار التي تشع من وراء الكلمات ، ويزيح الغشاوة عن عقلك ليصل الدواء فيورث الشفاء ، وتعمل هذه المعاني أثرها في روحك فتسمو في معالي الدرجات ، وترقى إلى فردوس الجنات .. ابدأ دعاءك الآن.

أيام هي الحياة

فقد الذاكرة دهرا

نسي ربه الذي خلقه

بارز بالمعاصي الذي نفخ فيه من روحه

أعلن الحرب على من أسجد له ملائكته

إلى أن ذهب إلى هناك

ووقع بصره على البيت

فدبّت فيه الحياة

وقف بعرفة فدعا الله ورجاه

ذبح الهَدْي وذبح مع الهَدْي هواه

رمى الشيطان بالجمرات فقصم ظهره وأخزاه

تحرر من الأسر وكسر القيد

وعاد أخيرا وهو يبكي من الفرح إلى رحاب مولاه

بين يدي هذه الرسالة

الحمد لله الذي جعل الكعبة البيت الحرام مثابة للناس وأمنا ، وخص بزمزم والمقام من زار بيته فرضا ونفلا ، واصطفى للصفا والمروة من غمره حبا ووصلا ، والصلاة والسلام على من أمرنا أن نأخذ عنه مناسك حجنا ، ودلّنا على ما فيه خيرنا وسر نجاتنا ، أما بعد...

أيها الحجاج..

أنتم ضيوف الله وزوّاره ، ووفدنا السنوي الذي يحمل وثيقة تجديد العهد مع الله ، أنتم أشراف الناس ، وأكرم الخلق على الله ، أيها المصطفون الأخيار ، لو لم يحبكم ما دعاكم ، ولا في بيته لقيكم وهداكم ، وها قد أذن لكم اليوم أن تعيشوا معه مرة في العمر بعد أن عشتم مع نعمه عليكم طيلة أيام حياتكم.

إخواني الحجاج..

رحلة القرب من الله قد ابتدت ، بدأها الله من عنده بالحب والوصال ، فأمر نبيه إبراهيم عليه السلام فيكم بالأذان : ؟ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ؟] الحج : ٢٧] قال : يا رب ، وكيف أبلغ وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال : نادِ وعلينا البلاغ ، فقام إبراهيم عليه السلام على جبل أبي قبيس ، وقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجُّوه ، فأسمع الله صوته من في الأرض ، وأجابه الإنس والجن ، ولبوا نداءه من بطون الأمهات وأصلاب الرجال ، وكنتم من هؤلاء .. سمعتم .. فلبيتم .. فحضرتم إلى هنا ، لسان حال الواحد فيكم:

لما سمعتُ نداء الله يدعوني شددت مئزر إحرامي ولبيتُ
وقلتُ للنفس جدِّي الآن واجتهدي وساعديني فهذا ما تمنيتُ
لو جئتكم زائرا أسعى على بصري لم أقض حقا وأي الحق أديتُ

أيها الحجاج ..

كان إخوانكم من حجاج الرعيل الأول يذهبون إلى الحج ليتعلموا المزيد عن الإسلام ، ويجددوا البيعة على الثبات عليه ، ويقابلوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيسألون ويتعلمون ، ثم يعودون إلى بلادهم سفراء لهذا الدين وشهداء على الناس ، فهل علمتم مهمتكم؟! وهل فهمتم قدركم؟!

أنتم سفراء من لم يُكتب لهم الحج هذا العام ، لتعودوا إليهم محمّلين بالنور العظيم والطُّهر العميم ؟! أنتم من تصلحون ما أفسده الدهر ، أنتم من تزيلون ما تراكم على قلوب الخلق من ران وأقفال ،

أنتم من وقع عليهم اختيار الله لهداية الناس وإنقاذ العالمين ، أنتم من عناهم الله بقوله : ؟ فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ؟]التوبة : من الآية١٢٢.]

لقد اعتبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ البلاغ أشرف مهماته ومنتهي واجباته ، فقال في حجة الوداع : ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد ، ليُصغي إليه كل حاج إلى يوم القيامة ، ويُكلّف بنقل الرسالة من بعده إلى من وراءه متجاوزا حدود الزمان والمكان ، وليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ويتكرر هذا البلاغ كل عام ، ولا يستغرق أيام الحج فحسب إنما يستغرق ربع العام لأن الحج أشهرٌ معلومات : شوال و ذو القعدة و ذو الحجة.

أهداف الكتاب السبعة

ألم تسألوا أنفسكم يوما هذا السؤال : لماذا فرض الله الحج مرة واحدة في العمر فحسب بعكس الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات؟! كأن المراد أن تتعلموا كيف تشحذون هممكم وتجمعون طاقاتكم ، لأن الفرصة قد لا تتكرر ، والتجربة قد تكون الأولى والأخيرة ،

ولعل هذا هو السر في اشتراط الإسلام شرط الاستطاعة لأداء فريضة الحج ، ليتمكن صاحبها من أدائها بإتقان وإحسان لأنها فريضة ستؤدى مرة واحدة في العمر كله ،

فلا تفوتنكم أهداف هذه الرحلة .. عضوا عليها بالنواجذ:

-1أن يكون حجكم متعة روحية هائلة عن طريق فهم أسراره ورموزه ، وسبر أغواره وحكمه ، فتنفتح لكم آفاق التخطيط بعناية وجدية لرحلة مباركة مليئة بالنفع والخير والمعاني التي لم تذوقوها قبل اليوم.

-2أن لا يتحوّل حجكم إلى حركات لا روح فيها ومناسك لا ثمرة من ورائها في زمن تحوّلت فيه كثير من العبادات إلى لون من الآلية والتكرار ، ونمط من العادات الرتيبة تجعل الكثيرين لا يحسون بأي فارق قبل الطاعة وبعدها ، حتى تحول الحج عند هؤلاء إلى حمل ثقيل يريد المرء منهم أن يلقيه عن عاتقه فحسب.

-3أن تخف عليكم المناسك الشاقة بل تحلو في عيونكم وتلذ في قلوبكم ، وتغلب حلاوتُها مشقتها وتهزم لذتُها صعوبتها.

-4أن تعدِّدوا نواياكم لتعظِّموا أجوركم وتضاعفوا ثوابكم ، فكم من حاج رافق حاجا وبين ثوابهما أبعد ما بين السماء والأرض ، لأن عبادات القلوب لا حد لثوابها ولا منتهى لمضاعفاتها ، الكل في الحج يتعب لكن الأجور تتفاوت والدرجات تتوزع بحسب محتوى القلوب ومكنون الضمائر. قال ابن القيم : " تفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها."

-5أن تعظِّموا شعائر الله وتزيدوا مهابتها في قلوبكم لتجنوا في نهاية رحلتكم المباركة ثمرة (التقوى) حلوة

شهية : ؟ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ؟ [الحج : ٣٢.]

-6أن تغتنموا هذه الفرصة العظيمة المتمثِّلة في زيارة هذه البقاع الطاهرة ، فتوقظوا مشاعركم التي أخمدتها رياح المادية الصرصر العاتية ، وتنسلخوا من عبودية الدنيا وتتحرروا من قيودها الصارمة ، فإنكم إن لم تفعلوا استحكم المرض وأعيى الداء ، وكنتم في أمس الحاجة إلى أن تقرؤوا مثل هذه الرسالة عسى الله أن يشرح بها الصدور ويبعث بها من في القبور ، الحج تجارة أيام تجلب ربح أعوام ، فكيف لا يغتنمه عاقل ويزهد فيه تاجر؟!

-7أن تغوصوا في عمق التجربة في محاولة بشرية متواضعة مني لاستخراج الحكم الإلهية من هذه العبادة الربانية التي كلما أمعنت فيها النظر انهمرت علي العبر ، إن أصبت فيها فمن الله ، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان ، صحيح أن الأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني ، وأن الغاية منها : العبودية الكاملة لله والخضوع له ، وأن العبد لا يحق له أن يسأل سيده عن سر تكليفه ، لكن هذا كله لا يمنع أبدا من معرفة الحكم والتماسها ، خاصة وأن الذي فرض علينا هذه العبادات نصَّ على بعض حِكَمها فقال عز وجل : ؟ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ؟]العنكبوت : من الآية٤٥[، وقال : ؟ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ؟]التوبة : من الآية١٠٣[، وقال : ؟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ؟]البقرة : من الآية١٨٣.]

إن فهم أسرار الحج وحكمه لهو أعظم المنافع وأغلاها ، وقد قدّم الله شهود هذه المنافع على ذكره سبحانه فقال : ؟ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ؟]الحج : من الآية٢٨]،

ومتى ما جهل الناس حكمة العمل العظيم أصبح العمل العظيم صغيرا ، إذ يؤدّى بغير روح ويُقصد به غير ما أراد الله ، وينصرف عنه أكثر الناس ، وتقل فائدته أو تنعدم ، وكأنّ المسلمين اليوم أخذوا بنصف هذه الآية وتركوا نصفها ، أو إن شئت قلت إنهم لم يفهموا إلا أحد الشقين فحسب!!

عبَّر حافظ بك عامر عن هذه الحال بقوله:
"عاد الحج أشبه بتمثيل رواية لا حكمة فيها ولا طائل من ورائها ، وصار معظم أهل الحجاز يحسبون الحجيج رزقا ساقه الله إليهم ولا شيء أكثر من أنهم رزق ، فيعاملونهم معاملة تجارية لا قدسية فيها ولا روحانية ، وينقلب الحج بذلك نزاعا بين هؤلاء وأولئك ، وتستعلن في تلك البقاع المقدسة روح السوق وروح التجارة لا روح الإسلام ولا روح الحج."

وإعانة لكم على الوصول إلى أهداف هذه الرحلة فقد أوردت كثيرا من أخبار الصالحين في الحج حتى نقتفي الأثر وننسج على المنوال ، فنرجع أقوى عزيمة وأعلى همة وأطهر روحا ، ونعود وقد اغتسلنا من الذنوب السالفات ، وقلبنا صفحة السيئات لنسطر في صفحات الحسنات أروع الطاعات وأزكى القربات.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب ليس كتابا فقهيا وليس موضوعه البحث في تفاصيل أداء المناسك ، فقد أضفت ملحقا خاصا بأحكام الحج والعمرة في آخر الكتاب ، وراعيت فيه أن يكون مختصرا سهلا مبسطا بعيدا عن التعقيد والإطالة والتعرض لمسائل الخلاف التي لا تعني سوى المتخصصين.

أيها الحجاج..

لن تنقضي العبارات ، ولن يسعفني المداد في وصف ما سوف تشعرون به من اللذات الغامرات ، لكن حسبي أنكم ستذهبون إلى هناك ، ودقيقة واحدة هناك تُغنيكم عن آلاف من الصفحات.

إخواني..

رحلتكم المباركة تبدأ من هنا ، فأولى خطوات الرحلة قراءة هذه الصفحة ، أعلم أن كلامي لا يليق بمقامكم ، وأن رسالتي عاجزة عن مخاطبة أمثالكم ، لكن حسبي أن حديثي..

يكون أُجاجاً قبلكم فإذا انتهى إليكم تلقّى طيبكم فيطيب

ويكفيني شرفا ويفضل عليّ كرما أني بهذه الرسالة أنال مثل ثوابكم

وقد دللتكم على الخير الوفير ، وأطمع في أن أفوز بدعائكم

وشفاعتكم لشخصي البائس الفقير ، وأحظى بعطفكم وإحسانكم

على أخيكم المستجير.

لعلّ كتابي أن يكون مذكّراً لكم بالدّعا بالعفو حين أغيب

ولا سيما بعد الممات عسى به يطيب مقام أو تُزال ذنوب

الفقير إلى عفو ربه ورضاه

خالد أبوشادي

أولا : فضل الحج والعمرة

فضل العمرة وثوابها

العمرة لغة واصطلاحاً:

لغة :الزيارة ، ويقال : اعتمر البيت أي زاره ، وأعمره أي جعله عامرا ، والمعتمر : الزائر القاصد للشيء ،
فمن معاني العمرة إذن : الزيارة ، والقصد ، وجعل المكان عامرا آهلا.

واصطلاحاً :زيارة بيت الله الحرام للطواف والسعي ، فركناها الطواف حول البيت ، والسعي بين الصفا والمروة.

وهدفي من سرد هذه الفضائل أن أُبصِّرك أخي المشتاق بما أنت مُقدِم عليه من الفضل والثواب ، وما يستوجبه ذلك من الشكر في حقك يا من اصطفاه ربه واجتباه ، والشوق في حق من حُرم الزيارة فواحسرتاه.

كان وهيب بن الورد يُسأل عن ثواب شيء من الأعمال كالطواف ونحوه ، فيقول : لا تسألوا عن ثوابه ! ولكن سلوا ما الشكر الواجب على من وفِّق لهذا العمل نظير توفيق الله وإعانته عليه؟!

الحج والعمرة ينفيان الفقر والذنوب

عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " أديموا الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفي الكير خبث الحديد) ."صحيح) انظر حديث رقم : ٢٥٣ في صحيح الجامع.
وخصّ الحديد بالذكر لأنه من أشد المعادن صلابة وأكثرها خبثاً إشارة إلى أن الفقر وإن اشتد ، والذنوب وإن عظمت ؛ يزيلهما المداومة على الحج والعمرة.

الحاج والمعتمر في رعاية الله وحفظه

وهذا الضمان ضمان حفظ وأمن للمعتمرين حتى يرجعوا ، أو ضمان جريان أجرهم إلى يوم القيامة إن لم يرجعوا. قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " من خرج حاجا فمات كتب الله له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمرا فمات كتب الله له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازيا في سبيل الله فمات كتب الله له أجر الغازي إلى يوم القيامة ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٢٥٥٣ في السلسلة الصحيحة.

كفارة لما بينهما

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما من الذنوب والخطايا ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٤١٣٥ في صحيح الجامع.
وهذا حث خفي وتنبيه ندي وتلميح شجي على استحباب تكرير العمرة والإكثار منها ، لأن التكفير مشروط بفعلها ثانية ، وأنت إذا لم تؤدِّ الشرط فاتتك الفائدة.

عمرة في رمضان تعدل حجة

جاءت أم سليم رضي الله عنها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : حج أبو طلحة وابنه وتركاني ، فقال : " يا أم سليم .. عمرة في رمضان تعدل حجة معي ". (صحيح) انظر حديث رقم : ١١١٨ في صحيح الترغيب والترهيب ، وهذا فضل من الله ونعمة حيث أنزل العمرة منزلة الحج بانضمام رمضان إليها ، ولذا يسن الإكثار من العمرة في رمضان.

أجرك على قدر تعبك ونفقتك

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لها في عمرتها : " إن لك من الأجر على قدر نصبك ونفقتك ". (صحيح) انظر حديث رقم 1116 : في صحيح الترغيب والترهيب ، وكأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه البشارة يمرّ بيده الحنونة على كل معتمر فيمسح عنه أي تعب يلقاه ، ويهوّن عليه كل مال ينفقه في سبيل الله ، مبشرا إياه أن ما عند الله خير وأبقى وأزكى وأغلى وأرقى وأسمى وأدوم وأعلى.

فضل الحج وثوابه

الحج لغة واصطلاحاً

لغة :القصد والكفّ والقدوم ، والغلَبة بالحجة وكثرة الاختلاف والتردد ، وقصد مكة للنسك ، والفاعل حاجٌّ وحاجِج ، ومؤنثه حاجّة ، والجمع حُجّاج وحَجيج ، والمرة الواحدة حِجَّة بالكسر.

واصطلاحاً :قصد البيت الحرام في زمن مخصوص بنية أداء المناسك من طواف وسعي ، ووقوف بعرفة وغيرها.

الحج يهدم ما كان قبله

عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال :

لما جعل الله الإسلام في قلبي ، أتيتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : ابسط يدك لأبايعك ، فبسط ، فقبضتُ يدي. قال : مالك يا عمرو؟ قلت : أشترط. قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي. قال : " أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله) ."صحيح) انظر حديث رقم : ١٣٢٩ في صحيح الجامع ، وهذا ما ورد في الحديث " : من حج لله فلم يرفث و لم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٦١٩٧ في صحيح الجامع.

وهذه رسالة بعثها الله إليك مفادها :إذا كنت قد قصّرتَ في الماضي فها هو سبحانه يخلقك من جديد ، ويسويك بقدرته الربانية في صفاء ونقاء عجيب.
أخي المشتاق .. الحج حرفان : حاء وجيم ، فالحاء حلم من الرب ، والجيم جُرْم من العبد ، فمن حج البيت فقد أدخل صغير جرمه في عظيم حلم الله فربح البيع وكان الفوز وأعظم فوز.

الحج من أفضل أعمال البر

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سئل النبي - صلى الله عليه وسلم : - أي الأعمال أفضل؟ قال : إيمان بالله ورسوله. قيل : ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله. قيل : ثم ماذا؟ قال : حج مبرور. متفق عليه ، وفي الحديث " : الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ". (حسن) انظر حديث رقم : ٣١٧٠ في صحيح الجامع.
ومعنى) الحج المبرور (أي الذي يقابله الله بالبر وذلك بأن يقبله ، وقالوا في تعريفه أنه:

... *الذي لا يخالطه شيء من الإثم.
... *وقيل أن يرجع خيراً مما كان عليه.
... *وقيل أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة.
... *وقيل الذي لا رياء فيه ولا سمعة ولا رفث ولا فسوق.

... *وقيل أنه إطعام الطعام ، وطيب الكلام ، وإفشاء السلام.

والصحيح أنه يشمل ذلك كله.

من أعظم البر

وكان عبد الله بن المبارك [ت : ١٨١ هـ] إذا أراد الحج جمع أصحابه وقال : من يريد منكم الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم ، فيضعها في صندوق ويغلقه ، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ، ويطعمهم أطيب الطعام ، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من هدايا ، ثم يرجع بهم إلى بلده ، فإذا وصلوا صنع لهم طعاماً ، ثم جمعهم عليه ، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فردّ إلى كل واحد نفقته!!

الحجاج و العمار وفد الله

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " الحجاج و العمار وفد الله دعاهم فأجابوه و سألوه فأعطاهم ". (حسن) انظر حديث رقم : ٣١٧٣ في صحيح الجامع.
والوفد هم الذين يقصدون الأمراء لزيارة وإقامة ونحو ذلك ،

وأنت تعلم ما يُفعل مع الوفود من البشر من حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة ، وهذا حال البشر مع البشر ، فما بالك باستقبال رب البشر للبشر؟!

ومن عظيم الكرم ومنتهى الجود أن هذا الوفد يُكرم قبل أن يصل وتُغدَق عليه الهدايا بينما هو في الطريق.
قال ـ صلى الله عليه وسلم : ـ

"ما ترفع إبل الحاج رجلا ولا تضع يدا إلا كتب الله تعالى له بها حسنة أو محا عنه سيئة أو رفعه بها درجة ". (حسن) انظر حديث رقم : ٥٥٩٦ في صحيح الجامع.

قال علي بن الموفق : حججتُ ستين حجة ، فلما كان بعد ذلك جلست في الحِجْر أفكر في حالي ، وكثرة ترددادي إلى ذلك المكان ، ولا أدري هل قُبل مني حجي أم رُدّ ، ثم نمت فرأيت في منامي قائلا يقول لي : هل تدعو أنت إلى بيتك إلا من تحب؟! فاستيقظتُ وقد سُرِّي عني.

الحج جهاد وأعظم جهاد

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: -

"نعم الجهاد الحج ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٦٧٦٩ في صحيح الجامع ، وقال " :لكن أحسن الجهاد و أجمله : حج مبرور ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٥١٦٠ في صحيح الجامع.

وذلك لأن الحج أخو الجهاد في المشقة وبذل المال والنزوح عن الوطن ومفارقة الأهل وإيثار ما عند الله ، والحجاج مثل الجنود في ارتدائهم زيا موحّدا ، وانتظامهم انتظاما واحدا ، واتجاههم وجهة واحدة ، وتحرّكهم بفكرة واحدة وكأنهم جيش نظامي ،
وتأمل تجرّدهم من قانون الحياة العادية ، والتزامهم بقانون آخر صارم غاية الصرامة لا يمكن التسامح فيه ولو بكلمة شاذة من رفث أو فسوق وإلا بطل الحج وضاع هباء منثورا ، وتأمل طاعتهم لأي أمر يصدر إليهم وتنفيذه على الفور كأنهم في ساحة قتال ،
ومن ثم جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - الحج أحد الجهادين ، وجعله جهادا للمرأة لأنها لا تقوى على القتال ، فقال لعائشة رضي الله عنها : " جهادكن الحج ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٣١٠٢ في صحيح الجامع ، بل وجعل ذلك جهاد كل الضعفاء ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : " الحج جهاد كل ضعيف ". (حسن (انظر حديث رقم : ٣١٧١ في صحيح الجامع.

المدهش في فضل الحج

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: -

"أما خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام ، فإن لك بكل وطأة تطؤها راحلتك ، يكتب الله لك بها حسنة ، ويمحو عنك بها سيئة ، وأما وقوفك بعرفة ، فإن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا ، فيباهي بهم الملائكة ، فيقول : هؤلاء عبادي .. جاءوني شعثاً غبراً من كل فج عميق ، يرجون رحمتي ، ويخافون عذابي ولم يروني ، فكيف لو رأوني؟ فلو كان عليك مثل رمل عالج - أي متراكم - أو مثل أيام الدنيا ، أو مثل قطر السماء ذنوباً غسلها الله عنك ، وأما رميك الجمار فإنه مدخور لك ، وأما حلقك رأسك فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة ، فإذا طفت بالبيت خرجت من ذنوبك كيوم ولدت أمك ". (حسن) انظر حديث رقم : ١٣٦٠ في صحيح الجامع.

الحج أبو العبادات

تتضمن مناسك الحج وشعائره كل أنواع العبادات من صلاة وصيام وصدقة ، فيدخل في الحج أداء ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم ، ومن كفارات الحج الصيام والهدي

، وعلى هذا فالحج عبادة قائمة على ألوان العبادات جميعا ، والتي تشغل القلب والقالب وتتمكن من الظاهر والباطن ،

ولذا كان أبو حنيفة]ت : ١٥٠هـ[يفاضل بين العبادات قبل أن يحج ، فلما حج فضّل الحج على العبادات كلِّها ، ويبرِّر ذلك مفتي البصرة أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي]ت : ٩٣هـ[بقوله : رأيتُ الصلاة تهلك البدن دون المال ، والزكاة تهلك المال دون البدن ، والحج يهلكهما معا ، لذا فهو أفضل الأعمال.

وبعبارة أخرى يقول ابن الجوزي]ت : ٥٩٧هـ[: " فالصلاةُ والصيامُ يجمعان سببين من هذه الثلاثة : عقد القلب وفعل البدن ، والزكاة تجمع سببين : عقد القلب وإخراج المال ، والحج يجمع الأركان الثلاثة ؛ فبان فضله ، ثم إن إنهاكه للبدن أشدُّ ، وإجهادُه للمال أكثر."

وقد بيّن الإمام الكاساني كغيره من العلماء فضل الحج على غيره من العبادات فقال :

"في الحجِّ إظهارُ العبوديّة وشكرُ النعمة ، أما إظهارُ العبوديةِ فهو إظهارُ التذلُّلِ للمعبود ، وفي الحجِّ ذلك ؛ لأنّ الحاجَّ في حالِ إحرامِه يُظهِرُ الشَّعَثَ ويرفضُ أسبابَ التزيُّن ، ويظهر بصورة عبد سَخِطَ عليه مولاه ؛ فيتعرَّض بسوء حاله لعطف مولاه ، وأما شكرُ النعمة ؛ فلأن العبادات بعضها بدنية ، وبعضها مالية ، والحجُّ عبادة لا تقوم إلا بالبدن والمال ؛ ولهذا لا يجب إلا عند وُجودِ المالِ وصحةِ البدن ، فكان فيه شكرُ النِّعْمتَيْن ، وشكرُ النعمة ليس إلا استعمالها في طاعة المُنْعِم ، وشكرُ النعمةِ واجبٌ عقلاً وشرعا."

ثانيا : قبل الرحلة

عبادات قلبية

هذه خمس عبادات قلبية لابد لك منها حتى تجني ثمار رحلتك وتحصد غراس تعبك.

(1)الفهم:

افهم شرف هذا البيت الذي تذهب لزيارته ، ولو لم يكن له شرف إلا إضافة الله إياه إلى نفسه بقوله ؟ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ؟] الحج : من الآية٢٦ [لكفى بهذه الإضافة فضلا وشرفا ، بل ونصبه مقصدا لعباده ، وجعل ما حوله حرما تعظيما لأمره ، فاستشعر بركة هذا البيت ،

فمن بركته أنَّ حجارته وضعَتْها يدُ إبراهيم ويدُ إسماعيل عند بنائه ، ثم يدُ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند وضعه الحجر الأسود ، ومن بركته اختيار الله له ،

ولله در الشيخ الشعراوي حين قال : " وإذا كانت المساجدُ في جميعِ بقاعِ الأرضِ بيوتَ الله وفيها نتقربُ إليه بالجماعةِ والاجتماعِ على الذكرِ والاعتكافِ مع أنها بيوتُ الله ولكنْ باختيارِ عِباده ؛ فكيف يكون التقربُ إلى الله في بيتِهِ الذي اختاره؟." !

ومن بركته أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة ، وكذلك الحسنة بمائة ألف بينما في غيره بعشر حسنات ،

ومن بركته أنك تمتنع فيه عن الآثام وتلزم الإنابة ، ومن بركته اتساع المكان فيه لهذه الأفواج الهائلة والجموع الحاشدة ،

ومن بركته اتساع القلوب فيه لتحمل الزحام ، ومن بركته أن الأفئدة تهوي إليه استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام : ؟ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ؟ [إبراهيم : من الآية٣٧ } ، فافهم معنى } أَفْئِدَةً { لتدرك أن الرحلة ليست رحلة أجساد غائبة بل رحلة قلوب مشتاقة وأرواح منقادة تنجذب إلى بيت الحبيب رغما عنها ، وتسعى إليه دون أن تشعر.

ومن الفهم أن تفهم أن الله قد اختارك من وسط مئات الملايين لتنال شرف الزيارة وتشهد كرامة اللقاء ، فكم من كافر على وجه الأرض حُرِم نعمة الإسلام؟ وكم من عظيم ورئيس أغلق دونه الباب؟ لقد اختارك الله دون الكثيرين واختصك بالفضل عن غيرك من المسلمين ، بل ذلّل لك كل العقبات ، فلم يمنعك ضعف صحة أو قلة مال أو كثرة عيال ، فما أعظم كرامتك على الله وما أغلى مكانتك عنده.

(2)التوبة:

أخي المشتاق..

إياك أن تبني صرح حجك على شفا جرف هار ، فتحج وأنت تنوي أن تعود إلى المعصية ، وإلا فكيف تفد بيت الله ، وتدعوه أن يغفر لك ويرحمك وقد عقدت العزم على محاربته بعد عودتك؟!

من أراد أن يدق باب الحرم بيده غدا فليطرق باب التوبة بقلبه اليوم ، فالذنوب عوائق عن الوصول ، بل حتى وإن وصلت البيت فالمعاصي موانع تحول بينك وبين القبول.

ويضرب لذلك الشيخ علي الطنطاوي أجمل مثل فيقول:

" هل ترتفع الطائرة إذا أثقلتها بالحديد ، وحمّلتها أضعاف ما تريد ، ثم ربطتها بحبال الفولاذ إلى صخور الجبل؟! إنها لا ترتفع إلا إذا خفّفت أحمالها ، وكذلك الأعمال : فإذا أردتم أن يصعد حجكم فخففوا عن عواتقكم أثقال الذنوب ، واقطعوا الحبال التي توثقكم بأرض الشهوات أو حُلّوها."

أسمى غاية المؤمن : توبة

قال تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللہ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٧].

قال ابن القيم [ت : ٧٥١هـ] : " هذا من أعظم ما يُعرِّف العبدُ قدر التوبة وفضلها عند الله ، وأنها غاية كمال المؤمن ، فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات ، بعد أن قضوا نَحْبَهم ، وبذلوا نفوسَهم وأموالَهم وديارَهم لله ، وكان غايةُ أمرِهم أن تاب عليهم ، ولهذا جعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم توبة كعب بن مالك خير يوم مرَّ عليه منذ ولدته أمُّه"

(3)الشوق:

فيتحقق بأن تستشعر أنك تطأ بقدمك موضعا وطأته قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وترابا مشى عليه الحبيب ، ولعلك تبكي من خشية الله فيسيل دمعك على تربة سقتها دمعة صحابي أو رواها دم نبي ، وتتنفس نسمات هواء ملأت صدور خير خلق الله ، وها هي الآن تملأ صدرك لتزيدك شوقا وتغمرك حبا وتعيد إليك ذكريات الكرام المرسلين والصحب الأولين.

هنا بمكة آي الله قد نزلت ... هنا تربى رسول الله خير نبي
هنا الصحابة عاشوا يصنعون لنا ... مجدًا فريدًا على الأيام لم يشُبِ

وقد أخرج البخاري عن سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم في كتاب الحج بابا سماه باب قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : العقيقُ وادٍ مُبارَك " : قد أناخ بنا سالم يتوخّى بالمُنَاخِ الذي كان عبد الله يُنِيخُ يتحرَّى مُعَرَّسَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أسفل من المسجد الذي ببطن الوادي " ، والمُعَرَّس : موضع النزول ، والتعريس : النزول آخر الليل,

والنزول في هذا المكان ليس من مناسك الحج ، وإنما فعله من فعله من أهل المدينة تبركا بآثاره ـ صلى الله عليه وسلم.ـ

ومن الشوق أن تدرك أنك تزور رب البيت لا البيت ، وتطلب القرب من الغفار لا من الأحجار ،
ولذا جاء في الحديث : " إن الله تعالى يقول : إن عبدا أصححت له جسمه و وسعت عليه في معيشته تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إليّ لمحروم ". (صحيح) انظر حديث رقم : ١٩٠٩ في صحيح الجامع ،

وتأمل قوله تعالى : " لا يفد إليّ " ولم يقل إلى بيتي ، فالحج ليس إلا رحلة إلى الله ، فبالله كيف لا يكون محروما من لا يرحل إلى الله؟!

لكنك وإن زرته في بيته فلن تراه اليوم ، فحدّث نفسك بيوم تنجلي فيه الحُجُب عن الله فتنظر إلى وجهه الكريم ، ولا تستعظم على ربك أن يمُنّ عليك بهذا الفضل العظيم فقد مَنّ عليك بزيارة بيته الكريم.

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: ـ
"إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى : تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون : ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنَجِّنا من النار؟ فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم ". (صحيح) انظر حديث رقم 523 : في صحيح الجامع.

ومن الشوق أن الناس يثوبون إلى البيت كلما فارقوه ، ويشتاقون إليه فور أن يتركوه ، ولا يشبعون منه أبدا ، كحجر المغناطيس يجذب الحديد ، لأن من ذاق لذة القرب عرف ، ومن شرب من نهر الحب اغترف.
قال تعالى : ؟ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً ؟] البقرة : من الآية١٢٥.]

من سادات المشتاقين

قال شيخ الإسلام سفيان بن عيينة]ت : ١٩٨هـ[: شهدتُ ثمانين موقفا (وقفة بعرفة) ، وكان من شده شوقه وحبه يدعو الله في كل موقف : اللهم لا تجعله آخر العهد بك ، وعلم الله صدق محبته وشدة شوقه فاستجاب دعاءه ولم يحرمه ، فلما كان العام الذي مات فيه لم يقل شيئا ، فسئل عن ذلك فقال : قد استحييتُ من الله تعالى.

خذوني خذوني إلى المسجد ... خذوني إلى الحجر الأسود
خذوني إلى زمزم علَّها .... تبرد من جوفيَ الموقد
خذوني لأستار بيت الإله .... أشد به في ابتهال يدي
دعوني أحطُّ على بابه ..... غزير الدموع وأستنفد

*كان السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان] ت : ٣٨٥ هـ[يتأمل الحجاج يوما فرقّ قلبه واشتاق إلى البيت ، فنزل عن فرسه وسجد وعفّر وجهه في التراب وبكى وقال لهم : بلّغوا سلامي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وقولوا له : العبد العاصي يقول لك : يا نبي الله .. لو كنت أصلح لتلك الحضرة المقدّسة لكنت في الصحبة ، فضجّ الناس في البكاء ودعوا له.

*قال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل] ت : ٢٤١ هـ[: حجّ أبي خمس حجات ..ثلاث حجج راكبا واثنتين ماشيا ، وأنفق في بعض حجاته عشرين درهما ، وكان من شدة شوقه أنه إذا لم يجد زاد الحج عمل حمّالا للقافلة ليغطي تكاليف الرحلة ولا يُحرم.

*خرجت أم أيمن زوجة أبي علي الروذباري من مصر وقت خروج الحجيج ، ورأت الجمال وهي تتوجه إلى مكة فصرخت : واضعفاه .. واعجزاه .. واحسرتاه ، ثم زاد بكاؤها وعلا نحيبها أكثر وأكثر وهي تقول : هذه حسرة من انقطع عن البيت فكيف تكون حسرة من انقطع عن رب البيت؟!

لسان حال القوم : لئن سار الناس وقعدنا وقربوا وبعدنا فنخشى أن نكون ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين.

(4)العزم:

*ومن العزم مفارقة راحتك ورفاهيتك التي كنت تجدها في بيتك طلبا لثواب الله.

*ومن العزم أن تجعل عملك خالصًا لوجه الله ، فلا تحج طلبا للسمعة أو الشهرة ، أو سعيا للمنفعة والتجارة ،
نعم يحل لك في الحج أن تتاجر على أن لا يكون ذلك مقصدك في الأساس ، وبهذا يكون سفر الحج خير الأسفار على الإطلاق ،

ولذا حين رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - نفرا من الحجاج يوماً وهو بطريق مكة فقال : تشعثون وتغبرون وتتلون وتُضحّون ، لا تريدون بذلك شيئا من عرض الدنيا ، ما نعلم سفراً خيراً من هذا.

"رُبَّ عمر اتسعت آماده وقلت أمداده ، ورُبَّ عمر قليلة آماده كثيرة أمداده"

وصدق - رحمه الله - فقد تُوفِّي الشافعي في الرابعة والخمسين وقد ملأ الأرض علمًا ، وتوفي عمر بن عبد العزيز في الثامنة والثلاثين بعد أن حكم الأمة عامين وأشهرًا فحقق ما لا يحققه آخرون في قرون ، وتُوفِّي الإمام النووي في الثانية والأربعين وقد ترك تراثًا يعجز أحدنا أن يقرأه فضلا عن أن يكتب مثله.

الخذلان كل الخذلان

واحذر من اتساع الوقت والفراغ من الشواغل ، ثم التفريط في هذه النعمة الجليلة .

تابع ابن عطاء حكمه فنبّهك إلى أن:
"الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه ، وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه."

وهل هناك وقت وفراغ من مشاغل في وقت مثل وقت الحج الذي ألقى فيه الحاج أعباء الدنيا وراء ظهره وفّرغ نفسه من كل شيء رجاء رضا مولاه وقربه منه ، فهل يليق به بعد ذلك أن يلهو ويلعب؟! ويزهد في الثواب ولا يرغب؟!

ويقضي حجه سعيا في الأسواق فإذا نُصح يغضب؟! فالموفق اليوم من تلمح قصر هذا الموسم والجزاء الأوفى فيه الذي لا آخر له ، فانتهز حتى اللحظات وزاحم كل الحسنات ، لعلمه أنها إذا فاتت فلا وجه لاستدراكها ، ومعنى هذا أن هذه الفضائل في حاجة إلى وثبة أسد وإلى حبل عزم جديد منسوج من حديد.

لا عمل إلا بنية

جميل بك أخي الحاج في ختام رحلتك الميمونة و سفرك المبارك أن تحمل إلى أهلك و أقاربك بعض الهدايا التي تدخل السرور عليهم ونيتك في ذلك : (وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم) (حسن) انظر حديث رقم : ١٧٦ في صحيح الجامع

، وقد ذُكِر أن أحد الحجاج عاد إلى أهله فلم يقدم لهم شيئاً فغضب واحد منهم و أنشد فيه شعراً فقال:

كأن الحجيج اليوم لم يقربوا منى ... ولم يحملوا منها سواكاً و لا مسكا
أتونا فما جادوا بعود أراكة .... ولا وضعوا في كف طفل لنا كعكا

على أن ذلك مشروط بأن لا يستغرق منك كثير وقت إلا يوما أو بعض يوم ، وإلا وقعت في فخ الشيطان وذهبت رحلتك سدى بعد بددت جهدك ونسيت هدفك الذي خرجت له ولم تسمع تحذير نبيك - صلى الله عليه

وسلم ـ لك : " و شر البقاع الأسواق) ."حسن) انظر حديث رقم : ٣٢٧١ في صحيح الجامع.

مناجاة

إلهي..

قد اقتربت سفينة عمري من ساحل قبري ، وما في المركب بضاعة من عمل صالح بل قلب ظمآن ونفس شحيحة وروح شريدة .. اللهمَّ هبني الإحساس بكل لحظة تمر من عمري ، وأعطني القدرة على اقتفاء خُطا الزمان الهارب من يدي .. اللهمَّ أعنّي حتى أُخرِج من الفراغ شغلا ، وأنسج من اليأس أملا ، وأصنع من الظلمة نوراً.

(5)قطع العلائق:

فمعناه أن لا يلتفت قلبك إلى غير الله ، فلا تعود تذكر أهلك ومالك وعملك ، بل لا يملأ قلبك طوال رحلتك سوى هم جليل يتزلزل بسببه كيانك وتضطرب أوصالك ، قد يكون مثلا أن يغفر الله لك فيقلب صحيفة ذنوبك بيضاء نقية ،

أو أن يصطفيك من عباده فيُمتِّعك بالنظر إلى وجهه الكريم ، أو أن يؤويك إلى جوار نبيه ويجعلك من جلسائه المقرّبين ، أو غير ذلك من عظائم الآمال وجلائل الأمنيات ، فحدد غايتك من حجتك ، ووحّد هدفك من الآن ، فإن توحيد الهدف يعجِّل بالوصول إليه ، ويصون من تبدد القوى المبذولة في إدراكه.

أخي..

هل ستصحبك الدنيا في كل رحلاتك حتى في رحلة التزود للآخرة؟!
هل ستنشغل بالمال عن رب المال وصاحبه ومانحه ومعطيه وأنت وافد عليه واقف بين يديه؟!
أعط الدنيا أجازة وامنح نفسك راحة ودع للآخرة في قلبك مساحة.

واجبات تنفيذية:

وهي واجبات تبعث في قلبك إذا تأملتها أن هذه الرحلة هي آخر رحلات حياتك ، وأنك لن ترجع بعدها إلى دارك بل إلى قبرك ، وأنك تستعد لحلول أجلك مع آخر خطوة تخطوها من طواف الوداع ، فيدفعك قصر الأمل وقطع تعلّق القلب بالعودة إلى أن تجدّ في السير وتتقن الحج.

قال ابن عقيل [ت : ٥١٣ هـ] رحمه الله:
"ما تصفو الأعمال والأحوال إلا بتقصير الآمال ، فإن كل من عدَّ ساعته التي هو فيها كساعته عند مرض الموت حسُنَتْ أعمالُه ،
فصار عمره كله صافياً."

فأدِّ حجتك دون أن تخلّف أي تبعة وراء ظهرك ، وذلك بأن تحرص على ما يلي:

... *قضاء الديون :فسداد الديون مقدّم على أداء الحج ، وقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل قبل أن يصلي على الميت : هل عليه دَيْن؟! فإن قضاه أحد وإلا لم يُصلّ عليه ، وأنت ذاهب في رحلة قد لا ترجع منها ، فإن كانت عليك ديون لا تستطيع أداءها فعليك استئذان أصحابها في الخروج للحج وإلا فلا تخرج.
قبول زيارتك فردّ المظالم وتبْ إليه أولاً."

... *رد الودائع وإبلاغ أصحابها بأنك مسافر للحج وقد لا تعود.

... *كتابة الوصية :قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا و وصيته مكتوبة عنده ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٥٦١٤ في صحيح الجامع. قال الطيبي : " فذكر الليلتين تسامح ، والأصل : يبيت ليلة ؛ يعني سامحناه في هذا القدر فلا يتجاوزه للأكثر."

... *توديع الأهل وكأنك لن تراهم بعد اليوم ، وذلك بالدعاء المأثور اقتداء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد (كان إذا ودع رجلا أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده و يقول : أستودع الله دينك و أمانتك و خواتيم عملك). (صحيح) انظر حديث رقم : ٤٧٩٥ في صحيح الجامع.

ثالثا : أسرار الحج والعمرة

هل صحيح أن أعمال الحج والعمرة مبهمة لا معنى لها؟!

وأن الله عز وجل تعبّدنا بما لا نفهمه؟!

أم أن في كل عبادة من عبادات الحج والعمرة تذكرة للمتذكر ،

وعبرة للمعتبر ، وتنبيه للغافل ، وإشارة للعاقل؟!

فإذا عرفنا إلام ترمز هذه العبادات اهتدينا لأسرارها فصفا القلب وسمت الروح وتم الفهم عن الله.

أما الزاد:

فاعلم أن هذه الرحلة رحلة عبودية ، ولابد لك فيها من الزاد حتى تستغني عن الناس فتخلص عبوديتك لله ، وتظل ذلتك بالكامل له ، فلا تسأل في هذه الرحلة غير الله بل لا تستشرف ولو بقلبك إلى سؤال أحد سواه.

واطلب الزاد من حلال ، فكيف تحج بيت الله برزق خبيث؟! بأي وجه يقابل الله من سرق عباد الله؟! أيجوز التطهر بماء نجس؟! أيرجو القبول وقد طُرد قبل الوصول!!

إذا حججت بمال أصله سُحت .... فما حججتَ ولكن حجّت العير
لا يقبل الله إلا كل طيّبة ..... ما كُلّ من حجّ بيت الله مبرور

وتعلم من التزود في الرحلة الفانية التزود للرحلة الأبدية ، ولتحدّثك نفسك أخي المشتاق أن الزاد الحقيقي هو التقوى ، فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه ، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى ، وقد جمع الله بين الزادين في قوله : ؟ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ؟]البقرة : من الآية ١٩٧].

وإن كنت تريد أن تحصل على القوة التي تعينك على أداء المناسك والتلذذ بالعبادة ، فلتحرص على كثرة الذكر فهو الذي يضاعف قوتك ، فإن من ثمرات المداومة عليه منح الحاج قوة وعزما وصلابة وبأسا ، ولذا كان الذكر أفضل أعمال الحج.

سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أي الحج أفضل ؟! قال : " العَجّ والثَّجّ ". صحيح . والعجّ : رفع الصوت بالتلبية ، والثجّ : هو نحر البُدن.
)حسن) انظر حديث رقم : ١١٠١ في صحيح الجامع.

أفضل الحجاج والمعتمرين

قال ابن القيم]ت : ٧٥١هـ[في الفائدة السادسة والخمسين من فوائد ذكر الله عز وجل:
"إن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرا لله عز وجل ، فأفضل الصُّوَّام أكثرهم ذكرا لله عز وجل في صومهم، وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكراً لله عز وجل ، وأفضل الحجاج أكثرهم ذكراً لله عز وجل ، وهكذا سائر الأحوال."

أما شراء ثوبي الإحرام:

فتذكر بلبسك ثياب الإحرام الكفن ولفّك فيه ، فإنك ستلقى الله عز وجل ملفوفاً في كفن أشبه ما يكون بثياب الإحرام ، إذ ليس في ثياب الإحرام مخيط تماما مثل الكفن ، وما أشبه المُحرِم اليوم بالميت ، فكلاهما يغتسل ، وكلاهما ذاهب للقاء ربه ، وهذا ما يذكِّر كل حاج بإخوانه الموتى وبحاله الذي يشبه حال كل ميت ، ويعبِّر عن ذلك الشاعر بقوله:

لعمرك لو كشفتَ التُّرب عنهم ... فما تدري الغني من الفقير
ولا الجلد الملامسَ ثوبَ صوفٍ .... من الجلدِ الملامسِ للحرير
إذا أكل الثرى هذا وهذا .... فما فضل الغني على الفقير؟

وتذكر أن هذه الحال تبعث في النفس أكبر درجات الخضوع وأسمى منازل الخشوع وأقصى تذلل للخالق سبحانه ، فأنت اليوم ليس معك من متاع الدنيا سوى ما تلبس ، وإن كان نعيم الدنيا وزخرفها قد أنساك أن الملك كله لله فقد جاءك اليوم الذي تقف فيه بين يدي ربك كيوم ولدتك أمك ، ليس عليك من دنياك سوى ما تستر به عورتك ، أنت اليوم أشبه ما تكون برضيع لُفّ في قطعة قماش ، لا يملك لنفسه شيئا ويحتاج من خالقه إلى كل شيء.

وتذكر بلبسك ثياب الإحرام أن الناس سواسية من الملوك إلى الصعاليك لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فالكل يخلع صنعة الخيّاط ليلبس خرقة البسطاء ، ويلحق بذلك أفقر الفقراء بأغنى الأغنياء ، ولا تجد دينا كالإسلام يغرس المساواة في قلوب أتباعه بمثل هذه الطريقة العملية ، ويفرضها في أجلّ العبادات لتتصل بالضمير وتمتزج بالتركيبة النفسية ، فيغرس ذلك في قلب كل حاج ولا شك خلق التواضع.

أجل .. هنا تلتقي كل الألوان والأجناس والأعراف واللغات والأعمار دون ذرة واحدة من تفرقة أو تمييز ، ولو رآنا دعاة حقوق الإنسان اليوم لقالوا : انظرونا نقتبس من نوركم .. ولكنهم قوم يجهلون!!

لكنه وإن تساوى الظاهر فالله أعلم بالسرائر ، فلعل فقيرا يعيش على الكفاف يكون خيرا عند الله من ملئ الأرض من غني ضاقت خزائنه بالمال ، ولعل رجل من عامة الحجاج أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره.

وتذكر بلبسك ثياب الإحرام الزهد في الدنيا ، والزهد كما قال ابن الجلاء : النظر إلى الدنيا بعين الزوال فتصغر في عينك فيسهل عليك الإعراض عنها ، أو كما قال الإمام أحمد : الزهد في الدنيا عدم فرحه بإقبالها ولا حزنه على إدبارها ،

ولذلك لما سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهدا؟! قال : نعم بشرط أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت.

وهل هناك فرصة لغرس الزهد في القلوب أعظم من فرصة الحج الذي نخلع فيه فاخر الثياب فلا فخر ولا مباهاة ، ونرتدي ملابس الإحرام البسيطة التي ليس لها جيوب!! وقد دلّنا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على معنى الزهد بحاله فضلا عن مقاله ، فقد حجّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رحل رثٍّ وقطيفة خلِقة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي كما روى ذلك عنه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

وتذكر بلبسك ثياب الإحرام أن تُبيّض قلبك كما بيّضت ثيابك ، فرب مبيِّض لثيابه مدنِّس لدينه.

واستشعر كذلك بياض المنهج الذي تحمله ونقاء رسالة الإسلام التي تحويها بين أضلاعك.

وأما الإحرام من الميقات:

فاعلم أن لحظة الإحرام من أهم اللحظات ، لأنها البداية ، وفساد النهايات من فساد البدايات ، فَتَحَرَّ الإخلاص بأقصى ما تستطيع ، ونَقِّ القلب من أي مُرَادٍ سوى الله ، مستعينا في ذلك بالدعاءُ بما دعا به نبيك ـ صلى الله عليه وسلم: ـ

"اللهم حجة لا رياء فيها و لا سمعة) ."صحيح) انظر حديث رقم : ١٣٠٢ في صحيح الجامع

وتذكر بوصولك إلى الميقات أن الله تعالى يؤهِّلك للقدوم عليه ، والقرب من حضرته ، فالزم الأدب معه لتكون أهلا لإقباله عليك بمزيد الإحسان وعظيم الإنعام.

واعلم أن الميقات فاصل بين الأرض التي تحل فيها محظورات الإحرام لأنك غير متلبس فيها بنسك ، وبين الأرض التي تُحظر فيها لأنك قد تلبّست بالنسك ، واعلم أنك ستتحلل من إحرامك عما قريب فتحل لك هذه المحظورات ، فتذكّر ساعتها ميقات الدنيا بما فيه من تعب ومحرمات ونصب ومحظورات ، وكيف أن هذا الميقات ما هو إلا منزل مؤقت ومعبر مُوصِّل إلى مكان آخر يحلّ لك فيه كل ما حُرّم عليك ، وتنعم فيه بكل ما حُرمت منه .. ألا إنها الجنة!!

وأول ما يجب فعله في الإحرام الاغتسال ، لكن لماذا الاغتسال؟! كأن المراد بالاغتسال أن تمحو عنك آثار الدنيا إن كانت لا تزال عالقة بك تأبى أن تفارقك ، فتعود كلك لله لا يبقى للدنيا فيك شيء ، وتبدأ رحلتك نقيا من غبار الدنيا وشهواتها ومشاغلها ، وليس الاغتسال لطهارة الظاهر فحسب بل لطهارة الباطن كذلك ، فيغسل هذا الماء ذنوبك ويخلصك من آثامك.
فإذا أحرمت فلا تتطيّب ولا تتزين ولا تقص شعرك أو تحلقه ، لأن رحلة الروح قد ابتدت فلا تنشغل عنها بمظاهر المادة الزائلة مهما كانت.

وأما التلبية:

فبعد أن تنوي الإحرام تبدأ التلبية بصيغته المعروفة:
"لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك."

ومعنى التلبية :إجابة نداء الله عز وجل على الفور مع كمال المحبة والانقياد ، وتكرار كلمة (لبيك) وعدٌ منك لربك بطاعة بعد طاعة وشهادة منك على نفسك بإجابة بعد إجابة ، فارْجُ الله أن تكون صادقا في دعواك ، واخْشَ أن تكون غير ذلك فيُقَال لك : لا لبيك ولا سعديك.

قال سفيان بن عيينة]ت : ١٩٨هـ[: حج علي بن الحسين]ت : ٩٤هـ[رضي الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي فقيل له لم لا تلبي؟ فقال : أخشى أن يقال لي لا لبيك ولا سعديك ، فلما لبى غشي عليه ووقع من على راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه.

ولما حجّ جعفر الصادق]ت : ١٤٨هـ[أراد أن يلبي فتغيّر وجهه ، فقيل له : ما لك يا حفيد بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ فقال : أريد أن ألبي وأخاف أن أسمع غير الجواب!!

تلبية شامية

يروي لنا أديب الفقهاء وفقيه الأدباء الشيخ علي الطنطاوي تجربته مع التلبية قائلا:
"فكنت أروِّض نفسي على استحضار معنى التلبية ، فأتصوّر أوامر الشرع وأن الله يدعونا إلى اتباعها ، وأتصوّر أنه يدعونا لترك ما نهى عنه ، فأقول لبيك اللهم لبيك ، لبيك جئت طائعا مستجيبا ، عازما على اتباع أوامرك ، والوقوف على محارمك ، وتصوّرتُ أني خلّفت الدنيا ورائي بصداقاتها وعداواتها ومطامعها ومخاوفها ، وأني قادم على الله فلا أرجو معه صديقا ولا أخشى معه عدوا ، وعرتني هذه النفحة من السمو الإلهي التي لا تعرض للمرء مرة في السنين الطوال ، وغمرتني موجة من لذة التأمل وحلاوة الإيمان لا يمكن أن تسمو إلى وصفها الأقلام."

النشيد السماوي

يصف حافظ بك عامر هذه الكلمات فيقول:

"كلمات روحانية فيها أنوار السماء تضيء على كل ما في الأرض وكل ما في النفس ، وتجعل الإنسان سماويا إلهيا في بعض أوقاته ليتذكَّرها في سائر أيامه الأخرى ، فإذا رجع إلى دنياه العادية نبّهته معانيها فكانت له كالقانون الروحي ، هذا النشيد دويّ عام يهتف به مئات الألوف من المؤمنين بصوت واحد فلا يمكن أن ينساه من سمعه ، وبذلك يكون قد انغرس في نفسه ، وحمل معه الهيئة التي تذكر به الحاج دائما ، فيرتبط به في الذاكرة فلا يمحى ولا يُنسى."

وابدأ بالتحرك إلى مكة من الميقات ، وأنت تردد هذا النشيد الإلهي الذي تضجّ به الصدور وتنطلق به الحناجر لمئات أو آلاف المرات ، وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقطع هذه المسافة على ظهر البعير في يوم وليلة ، لا يمل ولا يكل من التلبية ، ونحن اليوم نقطعها في أربع ساعات تقريبا ، ومع هذا نستشعر الرتابة والملل!!

قال أبو حازم : " كان أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أحرموا لم يبلغوا الرَّوْحاء حتى تُبَحَّ أصواتهم " ، وما ذلك إلا لأنهم موقنون في ثواب الله ، واثقون من عطائه ، منفذون لأمره الذي نقله إليهم نبيه فقال " : أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي ومن معي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية) ." صحيح) انظر حديث رقم : ٦٢ في صحيح الجامع.

وفي رفع الصوت بالتلبية قهر للوسواس وطرد للنعاس ، وهو أيضا أجلب للخشوع وأقرب للدموع ، والنساء في التلبية كالرجال لعموم الأحاديث الواردة في ذلك ، فيرفعن أصواتهن ما لم تُخشَ الفتنة.

معين الملبين

مما يعينك على التلبية بشارة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لك : " ما أهل مُهِلّ قط ولا كبّر مُكبِّر قط إلا بُشِّر ."قيل : يا رسول الله .. بالجنة؟! قال : نعم. (حسن) انظر حديث رقم 1621 : في السلسلة الصحيحة.

ومما يعينك على التلبية قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ما من مُلبٍّ يلبي إلا لبّى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا عن يمينه وشماله) ." صحيح) انظر حديث رقم : ٢٣٦٣ في صحيح ابن ماجة.

ومما يعينك على التلبية أن تتأكد أن كل ما مررت عليه من زرع وشجر وجماد وحجر سيشهد في حقك أمام الله يوم القيامة .قال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ : اذكروا الله عند كل حجيرة وشجيرة لعلها تأتي يوم القيامة فتشهد لكم.

ومما يعينك على التلبية أن تحس أن تلبيتك ما هي إلا طلب في إلحاح ودعاء في إصرار أن يحضر قلبك ويفيض دمعك وتخشع جوارحك.

ومما يعينك على التلبية أن تحدّث نفسك بقرب الوصول إلى الكعبة المشرفة ، فيزداد شوقك مع كل خطوة ، وكلما دنوت شبرا زادت ضربات قلبك لهفة واضطربت مشاعرك لوعة.

لبيك لبيك! ضجّ الركب وانطلقت ... جموعه والنشيد العذب يدفعه
صداؤه في فجاج الأرض صاخبة .... والبِيد في رحبها نشوى تُرَجِّعُه
وفي الجوانح من وَجْدٍ ومن وَلَهٍ .... ما جاش في النفس حتى فاض مَتْرَعُه
ما الطير مارقة الأجواء ضاحكة ..... ما الزهر في الروض أذكاه وأضوعه
أنقى وأجمل من ترداد تلبية .... يشدو بها محرمٌ والكون يسمعه

كلمات لها ما بعدها

تعقد المعاهدات دومًا في بداية أمر ما ، والتلبية معاهدة مقدّسة بين العبد وربه ، فهي ليست نهاية بل بداية ، ومن عاد من الحج فقد رجع بعد أن أبرم العهد مع الله ، ليعود بعدها من مقام العهد إلى مقام العمل ، ومن وعد اللسان إلى تصديق الجوارح ، فعملك الحقيقي أخي المشتاق إنما يبدأ بعد حجك ، لذا فالواجب عليك أن تخجل من مخالفة الله بعد انطلاق هذه الكلمات من فمك ، فإن رجوع الرجل عن وعده لمخلوق ضرب من الدناءة وانخلاع من صفات الرجولة ، فكيف إذا كان الوعد مع الخالق؟!

وأما دخول مكة:

فاستشعر قدرها وعظمتها وأنها مهبط الوحي ، وقبلة الدنيا ، وموطن الأمن والأمان ، فيها وُلد خير خلق الله ، وفيها ماء زمزم خير ماء على وجه الأرض ، وفيها الحجر الأسود الذي هو من الجنة ، ولطهارتها ليس فيها دين غير الإسلام ، ولا يدخلها غير مسلم ،

وهي أحب بقاع الأرض إلى الله ورسوله ، ومن كرامتها على الله أن نية المرء بالمعصية فيها تعرضه إلى عذاب الله ، ومن كرامتها أنه لا يجوز حمل السلاح فيها إلا للضرورة ، ومن كرامتها أنه يحرم صيدها على جميع الناس ، بل ولا ينفر صيدها ، ولا يُقطع شجرها ، ومن كرامتها أن الدجال سيدخل جميع البلاد إلا مكة ، وحين يقدمها يخسف به ومن معه.

طُف بي بمكة إني هدني تعبي ... واترك عناني فإني ها هنا هدفي
ودَعْ فؤادي يشدو في جوانبها .... ففي مرابعها يهيم القلب من لهفي

احذر أخي

أنت الآن في بلد الله الحرام ، وهو بلد تُضاعف فيه الحسنات وكذلك السيئات ، لأن من عصى الملك على بساط ملكه ليس كمن عصاه بعيدا عن داره ،

وقد توعّد الله عز وجل من يُرِد فيه الفساد بعذاب اليم فقال : ؟ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ [الحج :من الآية٢٥]. قال ابن كثير رحمه الله : أي يُهِمّ بأمر فظيع من المعاصي الكبار ، وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : الهمة في الحرم تُكتب ذنبا ،

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:
"أبغض الناس إلى الله ثلاثة : مُلحِد في الحرم ، ." ..
)صحيح) انظر حديث رقم : ٤٠ في صحيح الجامع ، و في الصحيحة ٧٧٨ ، وأخرجه البخاري في صحيحه.
قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري : وظاهر سياق الحديث أن فعل الصغيرة في الحرم أشد من فعل الكبيرة في غيره.

ولأن الله قد جمع في الحج حرمة الزمان وحرمة المكان ، فقد أرسل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تحذيره الشديد إلى أهل مكة وإلى كل من سكن مكة فقال:
"يا أهل مكة .. اتقوا الله في حرمكم هذا. أتدرون من كان ساكن حرمكم هذا قبلكم؟ كان فيه بنو فلان ، فأحلوا حرمته فهلكوا ، وبنو فلان فأحلوا حرمته فهلكوا ، حتى عدّ ما شاء الله ، ثم قال : والله لأن أعمل عشر خطايا بغيره أحب إليّ من أعمل واحدة بمكة."

ومن أكثر الذنوب شيوعا في مكة إطلاق البصر لاختلاط الرجال بالنساء أثناء الطواف وغيره . قال ابن الجوزي]ت : ٥٩٧هـ " :]اعلم أن غضّ البصر عن الحرام واجب ، ولكم جلب إطلاقه من آفة ، وخصوصاً في زمن الإحرام وكشف النساء وجوههن ، فينبغي لمن يتقي الله عز وجل أن يزجر هواه في مثل ذلك المقام ، تعظيماً للمقصود ، وقد فسد خلق كثير بإطلاق أبصارهم هنالك"

وأما دخولك المسجد الحرام:

فكأنك تستأذن الله في الدخول عليه والوقوف بين يديه والكون في حضرته ، فكن على مستوى الحدث وجلال الموقف ،

واشعر بما شعر به علي الطنطاوي حين دخل المسجد الحرام فقال مناجيا ربه:

"إن ذنوبي سوّدت صحيفتي ، وأنا لا أستحق الدخول عليك ، ولكن الكريم يقبل من يكون مع الضيف إكراما للضيف ، وأنت أكرم الأكرمين ، فهل تطرد من بابك من جاء مع أضيافك؟." !

وأما وقوع البصر على البيت:

فاحسب نفسك أمام الله وفي حضرته داخل بيته المقدس ، واملأ قلبك بالعظمة الإلهية والهيبة الربانية وأنت تري جموع الطائفين التي لا تنتهي ، وليرتجف قلبك وأنت تتأمل هذا الموكب الذي وصفه أستاذنا الطنطاوي فقال:

"لا يزال يمشي لا ينقطع ساعة لا في حج ولا في غير حج ، لا في ليل ولا نهار ، لا في صيف ولا شتاء ، منذ بنى إبراهيم هذه البَنِيّة من خمسة آلاف سنة إلى الآن ، إنكم لتعجبون إن رأيتم موكبا يسير خمس ساعات لا ينقطع ، أو جيشا يمر أمامكم خمسة أيام لا ينفد ، فكيف وهذا الموكب يمشي مستمرا متصلا لم ينقطع سيره ساعة واحدة من خمسة آلاف سنة." !!

واملأ عينك بالنظر إلى الكعبة حتى تسد الأفق أمامك ، فإن لذلك سحرا عجيبا وأثرا بالغا في تعظيم أمر الله وزيادة قوة الإيمان ، وراحة القلب وطمأنينة البال ، وقهر الوساوس وقتل الأحزان ،

وصدق ابن القيِّم حين وصف البيت فقال:

إذا ما رأته العين زال ظلامها ... وزال عن القلب الكئيب التألم

واعلم أن الكعبة ليست أحجارا وأستارا ، وإنما هي كما وصفها عمر بهاء الدين الأميري فقال شارحا مذهبه :

الكعبةُ الشَّماءُ في مذهبي .... قيمتُها ليستْ بأحجارِها
والقُربُ مِنْ خالقِها ليسَ ..... في تَشَبُّثِ المرءِ بأستارِها
قُدسيَّةُ الكعبةِ في جَمْعِها ....أمَّتنا مِنْ كُلِّ أقطارِها
وأنها محورُ أمجادها .... وأنها مصدرُ أنوارِها

واستحضر بقلبك معاني الحب ولقاء الحبيب ، وحصول المنى برؤية بيت الله والتشرّف بالوقوف فيه ، واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذا الشرف ، وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه ،

وأحسن الظن أنه لن يضيع جهدك سدى قائلا:

وما أظنك لما لبّى القلب دعوتكم ..... شوقا إلى الدار تدنيني من النار
وها أنا جارُ بيتٍ أنت قلتَ لنا .... حجوا إليه وقد أوصيت بالجار

وأما الطواف بالبيت:

فاعلم أنك في صلاة فاعصر قلبك لتُخرج منه كل معاني الخوف والاحترام والتبجيل لأنك في حضرة ملك الملوك ، فقلبك منظور ، وعملك مشهود ، وطوافك مرقوب ، واعلم أن الطواف هو أحب عمل يُتقرب به إلى الله في بيته ، فاستزد منه ما استطعت.

ولماذا عكس عقارب الساعة؟ !

والجواب :كأنك تطوف باتجاه الماضي ، لتتصل بالجذور ، وتعب من الينابيع الأولى ، وترتبط بتاريخ بالنبوة الخالد ، وتستلهم الهُدى من مهبط الوحي ، وتعيش على هذه البقعة المباركة فترة من الزمان ، مستحضرا ذكريات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصراعه الطويل مع الباطل ، ومُقدِّرا تضحياته العظيمة لتصلك الرسالة نقية جلية وأنت على فراشك!!

إنها كذلك رحلة في ماضيك أنت ، لتقف على أخطائك ، وتكتشف مواطن الخلل في تاريخك ، فتعود لصناعة مستقبل أفضل بعيدا عن زلات الماضي وعثرات العمر ، لتكون الخطوات القادمة راسخة وفي الاتجاه الصحيح بإذن الله.

وانْوِ وأنت ترمل في الأشواط الثلاثة الأولى من طواف القدوم أنك هارب من ذنوبك فارٌّ من خطاياك ، وإذا مشيت في بقية الأشواط فما هو إلا أثر الرجاء الذي ملأ قلبك بأن يغفر الله ذنبك ويقبل عَوْدك.

واستشعر أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله ، فأنت تطوف عندك والملائكة تطوف فوقك ، وفي نفس النقطة وبنفس الحركة التي تتحرك بها بل وفي نفس الاتجاه ، فاستحضر عندها أنك تطوف حافيا حول العرش ترجو الرحمة وتطلب الرضا وتتمنى القبول.

وتأمّل خشوع الملائكة وذلهم لله تبارك وتعالى ، وقلّدهم واقتد بهم تبركا وتشبها ، فقد قال رسول ـ صلى الله عليه وسلم: ـ
"من تشبه بقوم فهو منهم ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٦١٤٩ في صحيح الجامع.

وشاهد هذا المشهد بعين بصيرتك ، وأصغ إليه بسويداء قلبك لتسمع هذا الهدير الذي لن تخطئه أذنك بإذن الله ، وكأنه ترنيمة تقديس أو أنشودة تسبيح تنطق بها كل الكائنات لا الحجاج وحدهم ، وتفكر كيف لو أتيح لك أن تسمع على الحقيقة تسبيح كل الخلائق مرة واحدة ؟ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ؟] الإسراء : من الآية٤٤] ،
فإنك إن استشعرت ذلك زاد إيمانك وعلا يقينك ولا شك.

تناغم مع الكون

قال عز وجل : ؟ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ؟] يس : من الآية٤٠]
تلفت هذه الآية الأنظار إلى الحركة الدورانية أو الطواف كسنة كونية تتجلى في الخلق كله ، فالذرة لا ترى بالعين المجردة ، ومع ذلك تدور الإلكترونات فيها حول النواة في مدارات خاصة ، ويعني ذلك أن جميع ذرات المواد الصلبة والسائلة والغازية في هذا الكون تعمل فيها ظاهرة الطواف ، بل حتى سائل الخلية يطوف حول نواتها!! فالكل في هذا الكون يطوف ، والذي يطوف حول البيت إنما يساير سنن الله الكونية ويتوحد مع مخلوقاته ، ويصير ترسا في نظام كوني محكم خاضع لله يسبح الله ويمجده ويطيع أمره ولا يجحده.

حتى لا تملوا

ينصحك الأستاذ عمرو خالد بالآتي:

اجعل لكل شوط عملا خاصا به ، فمثلا : اجعل الشوط الأول للاستغفار ، والثاني ادع فيه لنفسك ولأهلك ، والثالث اذكر الله تعالى فيه ، والرابع تذكر نعمة الله عليك من ساعة خلقك حتى مجيئك إليه في بيته ، والخامس ادع فيه للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لنصرة الإسلام والمسلمين ، والسادس ادع فيه لوالديك خاصة ، والسابع اطلب منه عز وجل القبول ، ويمكنك بعد ذلك أن تجعل لكل طواف هدفا ، فطف طوافا للذكر فقط وآخر للدعاء وهكذا..،

وأخلص في الطواف وأحضر قلبك فيه مستحضرا أنه استجداء الملحين من الكريم أن يغفر ، وتكرار الطلب

منه أن يقبل ، وأكثر من الطواف ثم أكثر منفذا وصية علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه: ـ
"استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يُحال بينكم وبينه."

وأما استلام الحجر الأسود:

]فاستشعر عند استلامك الحجر الأسود (مسحه باليد) أو تقبيلك له أو إشارتك إليه بشيء كالعصا ونحوها ثم تقبيل ذلك الشيء أو إشارتك إليه بيدك (كل ذلك ورد) أنك تبايع الله على طاعته فيجب عليك الوفاء ، لأن الحر الكريم لا ينكث عهده ولا يخلف وعده ، ومن غدر استحق المقت والإبعاد ، ومن تكرر منه نقض العهد لم يوثق به بعد ذلك على الدوام.

قال عكرمة]ت : ١٠٥ هـ[: "الحجر الأسود يمين الله عز وجل في الأرض ، فمن لم يدرك بيعة رسول الله ، فمسح الركن فقد بايع الله ورسوله"
.

واشتق إلى الجنة لأنك تقبل قطعة منها ، فنسائم الجنة تفوح ، وأنوارها تلوح. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم " : ـ نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسوَّدته خطايا بني آدم ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٦٧٥٦ في صحيح الجامع ،

فاستحضر عندها ذنوبك السوالف كيف سوَّدت الحجر الأصم ، أفلا تسوِّد قلبك المسكين وهو من لحم ودم؟! قال عليه الصلاة والسلام : " لولا ما مس الحجر من أنجاس الجاهلية ما مسّه ذو عاهة إلا شفي ، وما على الأرض شيء من الجنة غيره ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٥٣٣٤ في صحيح الجامع.

ولذا (كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يدع أن يستلم الركن اليماني والحجر في كل طوفة). (حسن) انظر حديث رقم : ١٦٥٢ في صحيح أبي داود ، ولعل شفتيك تلامس موضع شفتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتسعد سعادة الأبد ،
وهذا من علامات المحبين الصادقين : الأنس بآثار الحبيب ، ولا سيما إذا تعذّر اللقاء وطال الفراق.

أمر على الديار ديار ليلى .... فألثم ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي .... ولكن حب من سكن الديارا

واغتنم أوقات السحر حين يقل الزحام كما اغتنمها قبلك محمد ضياء الدين الصابوني ثم قص علينا تجربته قائلا:

كعبة الحسن تبدَّت سحرا .... ما أحلاها بوقت السحر
كلما طُفت بها في لهف ..... هزني الشوق للثم الحجر
فرسول الله قد قبّله ...... كيف لا أهنا بلثم الحجر

أجر يمحو المشقة

أرشدنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى فضل ذلك في قوله:
"إن لهذا الحجر لسانا و شفتين يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحق ". صحيح حديث رقم (٢١٨٤) في صحيح الجامع.
وقوله ـ صلى الله عليه وسلم: ـ
"إن مسح الحجر الأسود و الركن اليماني يحطان الخطايا حطا ". صحيح انظر حديث رقم (٢١٩٤) في صحيح الجامع.

إياك والمزاحمة

عن عابس بن ربيعة قال : رأيت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يُقبل الحجر ويقولني أقبلك وأعلم أنك حجر ، ولولا أني رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبلك لم أقبلك.

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ قد امتثل لوصية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قال له:
"أنت رجل قوي لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف ، إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فاستقبله وهلل وكبّر ". صحيح انظر حديث رقم ١٨٥ في مسند أحمد وصححه الألباني في الحج الكبير

والعمل على هذا عند أهل العلم فهم يستحبون تقبيل الحجر ، فإن لم يمكنك استلمته بيدك ، فإن لم تصل إليه استقبلته بوجهك إذا حاذيته وقلت : بسم الله ..الله أكبر ، واحذر فقد يكون إثم إيذاء مسلم ومدافعته أعظم من ثواب تقبيل الحجر واستلامه ، فإن تقبيل الحجر سنة وإيذاء المسلم حرام ، فهل يليق بك أن تقع في الحرام لتحقق سنة؟!

للنساء أوجب

قالت مولاةٌ لأم المؤمنين عائشة : يا أم المؤمنين! طفتُ بالبيت سبعا ، واستلمتُ الركن مرتين أو ثلاثاً. قالت عائشة : لا آجركِ الله .. لا آجرك الله .. تدافعين الرجال؟! ألا كبّرت ومررتِ!!

الدعاء قلب لا فصاحة

جاءت امرأة من الأعراب إلى الحجر الأسود فسمعت طائفة منهم يدعون بدعاء حسن ، ويسألون مطالب لهم ، فقالت : اللهم إنك تعلم أني لا أحسن مثل دعائهم ، وتعلم أني أسأل منك مثل الذي يسألون ، فأعطني مثل ما تعطيهم ، ثم انصرفت!!

وأما الالتصاق بالملتزم:

وفي الالتزام اقتداء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في التصاقه بالملتزم فقد (كان يلزق صدره ووجهه بالملتزم). حديث حسن رقم (٥٠١٢) في صحيح الجامع ، والملتزم هو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود ،

ويُقَال له أيضا : المدعا والمُتَعَوَّذ وهما من أسماء المُلتَزَم ، وسُمِّي الملتزم لأن الناس يعتنقونه ويضمونه إلى صدورهم ، فأنت تلصق صدرك حيث ألصق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدره ، وتدعو حيث دعا ، وتخالط أنفاسك أحجار الكعبة التي تشرفت بملاقاة أنفاس الحبيب وزفراته.

وفي الالتزام طلب القرب وإظهار الشوق إلى البيت ورب البيت.

وفي الالتزام تبرك بمماسة الكعبة ورجاءُ التحصن من النار لكل جزء من بدنك لامس أحجارها.

وفي الالتزام إلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب في حقه ، المظهر أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ، ولا مفزع له إلا كرمه ، وأنه لن يفارق ذيله إلا إذا عفا وصفح وأنعم وغفر ، ولذا كان الحسن البصري { ت : ١١٠هـ } إذا رأى الملتزم تعلق به وقال لمن معه:

تنحوا عني حتى أقرّ لربي بذنبي

وأما الصلاة في مقام إبراهيم:

فإذا انتهيت من الطواف فاقرأ : ؟ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً ؟ { البقرة : من الآية١٢٥ } ، ثم تقدّم إلى مقام إبراهيم فصلِّ ركعتين كأنك بهما تشكر الله أن بلّغك مرادك ووفّقك لغايتك.

ومقام إبراهيم هو الحَجَر الذي كان الخليل يعلوه عند بنائه البيت ليتمكن من رفع الحجارة ، لذا يعتبر أكبر مساهم في بناء بيت الله الحرام ، وما يدرينا لعلنا أُمرنا بالصلاة خلفه ردا للجميل ، فقد قدّم هذا الحجر أكبر خدمة لبناء بيت الله وأعظم مساعدة لنبي الله ، فاستحق أن يُصلّى خلفه ليتشرف بأعظم عبادة من أطهر عباد ، فاغرس في قلبك أعظم الرجاء ، وكيف لا وقد كافأ الله الحَجَر على إحسانه ، فكيف لا يكافئ البشر وقد زاروه طمعا في فضله ورضوانه؟!

واستشعر عراقة النسب بينك وبين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وتأمل أوجه التشابه بين حجتك وبين ما فعل ، فقد فارقتَ وطنك كما فعل إبراهيم عليه السلام حين خرج من العراق متوجهًا إلى الحجاز ، وتخليتَ عن ملابسك ولففت حول جسدك رداءين بسيطين يشبهان اللباس الذي ارتداه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ،

وطفتَ حول الكعبة كما طافا ، وستسعى بين الصفا والمروة مقلدا سعي هاجر بحثاً عن الماء ، وستنحر قربانك كما فعل إبراهيم حين افتدى ولده ، وسترمى الشيطان بالجمرات مكررا عمل إبراهيم حين رمى الشيطان بالجمرات ،

فتذكّر هذا التاريخ وامزج صلاتك بذكرى نبي الله إبراهيم الذي ضحّى وبذل وجاهد وصبر حتى استحق تقدير الله له بأن جعله أمة وحده ، بل وقرّبه وأدناه منه حتى أنعم عليه بلقب الخليل.

وأما الشرب من زمزم:

ثم انزل للشرب من زمزم المباركة لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم: ـ
" *ماء زمزم لما شُرِب له ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٥٥٠٢ في صحيح الجامع ، وذلك لأن زمزم سقيا الله وغياثه لولد خليله إبراهيم فبقي غياثاً لمن بعده ، فمن شربه بإخلاص وجد ذلك الغوث.

" *خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم ، فيه طعام من الطعم و شفاء من السقم ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٣٣٢٢ في صحيح الجامع.

وليس أدل على بركتها من أن الله اختار ماءها لغسل قلب سيد المرسلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لما لهذا الماء من دور في تطهير القلوب وتقوية الأرواح ، وفهم الصحابة بركتها فكانوا يسمونها شَبَّاعة حتى قال عنها عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ : " وكنا نجدها نعم العون على العيال ".(صحيح) انظر حديث رقم : ٢٦٨٥ في السلسلة الصحيحة.

وفهِم علماؤنا الأجلاء قدرها فكان الإمام الشافعي يشربها بنية عجيبة ويخبرنا عن ذلك بقوله: شربنا ماء زمزم لتعلم العلم فتعلمناه ، ولو شربناها للتقوى لكان خيرا لنا.

ولما أتاها عبد الله بن المبارك]ت : ١٨١هـ[شرب شربة ، ثم استقبل القبلة , وقال : اللهم إن ابن أبي الموال حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : " ماء زمزم لما شُرب له " ، وهذا أشربه لعطش القيامة ثم شربه.

ذكاء طالب علم

قال أبوبكر الحميدي : كنا عند أبي محمد سفيان بن عيينة]ت : ١٩٨هـ[فحدثنا بحديث زمزم إنه لما شرب له ، فقام رجل من المجلس ، ثم عاد فقال : يا أبا محمد .. أليس الحديث صحيحا الذي حدثتنا به في زمزم أنه لما شُرِب له؟! فقال سفيان : نعم. قال : فإني شربت الآن دلوا من زمزم على أنك تُحدِّث بمائة حديث ، فقال سفيان : اقعد ، فحدّثه بمائة حديث.

تعلّم من الأعراب

إن خانك لسانك ولم تُسعِفك فصاحتك ، فليس أقل من أن تكون مثل هذا الأعرابي الذي وقف على زمزم فوجد الناس يشربون ، ويسألون مطالب لهم مختلفة ، فرفع إناء مملوءا منها إلى فمه وقال : اللهم إن هؤلاء قد اختاروا لأنفسهم ، فاختر أنت لي ، ثم شرب.

فجهّز أخي المشتاق كل ما ترغب فيه من نوايا ودعوات ورجاء وأمنيات لتتقدم بها إلى الله وأنت تشرب من ماء زمزم ، فإنك مُجاب بإذن الله.

وأما السعي بين الصفا والمروة:

فاستشعر أنك عبد تسعى بين يدي مولاك ذاهبا وآتيا مرة بعد أخرى إظهارًا لإخلاصك له .. رجاء أن يلمحك بعين الرحمة ، ويشملك بعطايا خير ومِنَح بِرّ تطلّق بعدها الشقاء إلى الأبد ، ولا تزال تسعى مرة بعد مرة ترجو أن تُرحم في الثانية إن لم تُرحم في الأولى.

واستشعر كذلك أنك تبحث عن شيء هنا وهناك وتنشد ضالة هي عندك أغلى ما تملك وهذه الضالة هي رحمة الله تعالى ، عسى الله أن يرحمك برحمته الواسعة كما رحم هاجر وابنها فأفاض عليهما ماء زمزم ،

فالسعي في حقيقته ركض في طلب الرضا ، وتشمير لنيل الأجر ، وكدح لجمع الحسنات وحط السيئات. وتعلّم الثقة بالله والتوكّل عليه ، إذ أن الصفا والمروة من شعائر الله ، والشعيرة هي العلامة أو التذكار ، ذلك أن الصفا والمروة يذكِّران بأصل عظيم هو الثقة بالله والتوكل عليه ، فقد أسكن إبراهيم عليه السلام زوجه وابنه في منطقة جرداء لا زرع فيها ولا ماء امتثالا لأمر الله ويقينا فيه مع انقطاع الأسباب ، وأطاعت زوجه هاجر الأمر قائلة في يقين : آلله أمرك بهذا؟! إذن لن يضيّعنا ، فكانت نِعم العون لزوجها على طاعة الله حين قالت : اذهب لما أمرك الله ، فأحب الله منهما هذا الصنيع ، وخلّد ذكره على مر الأجيال لنقتدي به ونتعلّم منه ،

فجعل الصفا والمروة من أركان الحج والعمرة لتظل أبدا تنطق بهذا المعنى وتتكلم ، وأبقى زمزم تفيض بالماء إلى قيام الساعة ببركة هذا التوكل ليستلهم الناس هذا المعنى ، ويملئوا الروح به كلما اغترفوا منها وشربوا.

وتعلم الإصرار واقتل اليأس فقد كانت هاجر تسعى هنا وهناك دون أن تهدأ حتى حصلت على بغيتها عن طريق تكرير سعيها سبع مرات! بتصميم وثبات وعدم يأس من تحقيق هدفها ، في رحلة أصدق ما توصف به أنها رحلة الألم والأمل ، ولقد كان بإمكانها أن تُعذِر إلى الله بأن تسعى مرة أو مرتين.

إنه الدرس العظيم في حقيقة الإيمان الراسخ ، وفي إثبات أن رحمة الله فوق اليأس ، وأن الإيمان واليأس لا يجتمعان في نفس المؤمن ، وأن نفس المؤمن فوق قوى الطبيعة.

وابذل الأسباب وتعلّق بربها فقد سعت هاجر بحثا عن الماء حتى انفجر تحت قدم إسماعيل ، ليس في المكان الذي سعت فيه بل في مكان آخر أمام الكعبة وتحت قدم رضيع لا حول له ولا قوة ، دلالة على أن الأخذ بالأسباب واجب لكنه ليس سبب النجاة ، بل الأمر كله لله الذي أمر جبريل فضرب بجناحه تحت قدم إسماعيل لتتفجّر زمزم بضربة ملَك تحت قدم نبي ، فتعلّم الدرس وامضِ سعيا وراء الأسباب على أن تتعلّق بربها ، وابذل غاية المجهود ليعين الرب المعبود.

وأما الحلق:

وبعد الانتهاء من السعي يبقى ركن واحد حتى تتحلل من إحرامك وهو أن تحلق ، وكأنك تزيل عنك كل ما يذكرك بالماضي لتفتح صفحة جديدة مع الله ، وهو تفاؤل بحطّ السيئات ، وانسلاخ من حياة الإثم ، وتوبة مما مضى ، وعزْم على إصلاح ما بقي ، وليس الحلق محوا السيئات فحسب بل ربحا للحسنات كذلك ، وقد مرّ بك:
)فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة). (حسن) انظر حديث رقم : ١٣٦٠ في صحيح الجامع.

وتذكّر عند الحلق أنك طأطأت رأسك لتحلق شعرك معلنا أنك راض بفعل كل شيء يُرضي الملك ، وأنك أسلمت ناصيتك له ليس الآن فحسب بل وفي كل وقت وحين.

والحلق أوْلى فقد ترحّم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المحلقين ثلاثا ، وعلى المقصرين مرة ؛ لأن الحلق أكمل امتثالا للأمر ، فالإنسان يحب بقاء شعره للزينة والتجمل ، وقد يتألم من حلقه ، فإذا حلق هذا الشعر طواعية ، كان ذلك دليلا على كمال عبوديته لله و تضحيته في سبيله.

يوم التروية:

اليوم هو اليوم الثامن من ذي الحجة المعروف باسم يوم التروية ،

وسُمّي بذلك لأن العرب كانوا يملئون قربهم في ذلك اليوم ويرتوون ليوم عرفات إذ لم يكن فيها يومئذ ماء ،

فاستحضر في هذا اليوم معنى التزود للآخرة ، واعترف بعطشك الشديد لزاد التقوى والإيمان ، وحاجتك الماسّة لغيث الهدى والإحسان ، واستشعر أنك ساع في سفر طويل بزاد قليل ، فاملأ حنايا قلبك اليوم بما تستطيع من ماء التقوى ذلك خير.

وهذه الليلة ليلة مصيرية في عمرك ، فغدا يوم عرفة ؛ وهو أهم يوم في الحج بل أهم يوم في حياتك ، فغدا ترجع من ذنوبك كيوم ولدتك أمك ، وغدا تبدأ بداية جديدة مع الله ، وغدا تهزم الشيطان وتبطل كيده.

والذهاب إلى منى فيه إعداد نفسي لك قبل وقوفك بعرفة حيث الانقطاع في الصحراء للعبادة فقط فلا مخالطة للناس ولا تشتيت للهم ، ومن فاته المبيت بمنى جاز حجه لكن فاته خير كثير. واستشعر الخوف وأنت في منى من عدم قبول حجتك وردك غدا على أدبارك مطرودا غير مقبول ، وهل ستكون ممن اطلع الله على قلوبهم فرضي عنهم أم علم خبثهم فسخط عليهم؟!

واقلق من عدم توفيق الله لك ، فلعلك لا تصل غدا إلى عرفة فتضيع حجتك وتُحرم الخير كله ، فهل ستدرك الموقف أم لا؟! وهل ستعيش حتى تصل هناك أم أن الموت سيدركك قبل ذلك؟!

وأما الوقوف بعرفة وما أدراك ما عرفة:

فاعلم أن اليوم فاصل لك بين عهدين ، وتحول جذري في مسار حياتك ، ولذا حصر رسول الله- صلى الله عليه وسلم - الحج فيه فقال:

"الحج عرفة ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٣١٧٢ في صحيح الجامع.
واستشعر مثولك أمام الله في ميدان الحشر ، وحيرتك في هذا الموقف بين الرد والقبول ، وطمعك في شفاعة الرسول ، وأجْرِ على نفسك اليوم تأملا ما سيجري عليك غدا حقيقة وواقعا.

وألزم قلبك الضراعة والخشوع والتوبة والخضوع ، وأخرج كل خاطر من خواطر الدنيا من قلبك ، وأقبل على الله بكل ذرة من كيانك ، فمنذ سنين وأنت تحاول الوصول إلى ساحل القبول وما أدركت الشط ، وها هو اليوم أمامك على مرمى البصر ، فإن كتبت جواب توبتك بدموع الأسف غُفِر لك ما قد سلف.

وأشهر فيه إفلاسك واعترف بفقرك ، وأقر بعجزك وجهلك ، واستحضر صحيفة ذنوبك الماضية وقبيح سوابقك المهلكة ،

واذكر الساعات الضائعة من عمرك ، واندم على التفريط في زمن الصبا ، فكم أتعبت الحفظة سنين ، وسهرت في المعاصي حينا بعد حين ،

وأظهر الفاقة والمسكنة حتى تكون ممن مستحقي للصدقات ، ألم تقرأ قول ربك : ؟ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ؟ [التوبة : من الآية٦٠]،
وتعبيرا عن ذلك:

ارفع يديك إلى صدرك متمثِّلا أعلى درجات الذل والعبودية مقلدا نبيك الذي قال عنه ابن عباس - رضي الله عنه: -
رأيتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو بعرفة ويداه إلى صدره كاستطعام المِسكين.

يا الله .. يفعل هذا وقد حُشرت له جزيرة العرب عن بكرة أبيها بقبائلها وأبطالها وشعرائها وبطونها ، تأتمر بإشارة واحدة منه ،

لكنه - صلى الله عليه وسلم - كان كلما ملك زاد فقرا ، وكلما علا سجد ذلا ، لعلمه أن الفضل كل الفضل لله رب العالمين ، فليتعلَّم ذلك كل من مسته نفحة كبر أو أصابته نوبة غرور ليتواضع.

وأكثر فيه من الدعاء ، فهو عبادة الوقت وأفضل الأعمال في هذه الساعات ، وأقرب دعاء من القبول على الإطلاق ، فإن " أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ". (حسن) انظر حديث رقم : ١١٠٢ في صحيح الجامع ،

والدعاء معناه الأمل ، والأمل معناه اليقين ، وفي اليقين الراحة الغامرة والسكينة الرائعة التي لا تساويها كل كنوز الدنيا.

وقد منعك الله من صيام هذا اليوم وحّرمه عليك حتى لا تضعف عن الدعاء ، ،

وفي قصر الصلاة وجمعها اليوم دلالة واضحة على ذلك ، وكأن المقصود أن يطول دعائك وتضرعك إلى أقصى ما تستطيع ، فسبحان من أعانك على ما فيه نفعك ثم تنساه!! وأرشدك إلى ما فيه فوزك ثم تغفل عنه!!

قلد نبيك وإلا..

لا تضيع اليوم لحظة واحدة مقتديا في ذلك بنبيك ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي شغله الذكر والدعاء يوم عرفة عن كل شيء حتى عن طعامه وشرابه ، حتى ظن كثير من الصحابة أنه صائم ، فعن أم الفضل بنت الحارث أن ناسا تماروا عندها يوم عرفة في صوم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال بعضهم هو صائم وقال بعضهم ليس بصائم ، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره بعرفة فشرب) .صحيح) انظر حديث رقم : ٢١٣٢ في صحيح أبي داود وهو في البخاري ومسلم.

نعم لم يضيع لحظة واحدة ، وكأنه يقول لك:

الوقت اليوم لا يقدر بثمن ، فكل لحظة تُنفقها في غير طاعة أعظم خسارة ، ودعاك إلى ذلك بفعله لتكون استجابتك أسرع وطاعتك أقرب ،

فعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ : " كنتُ رديف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعرفات فرفع يديه يدعو ، فمالت به ناقته فسقط خطامها ، فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٢٩٦١ في سنن النسائي وحديث رقم : ٢٠٨٢٠ في مسند أحمد.

واسمع إلى حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ وتعلم منه : " .....، ثم ركب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس) ." صحيح) انظر حديث رقم : ٢٤٩٤ في صحيح ابن ماجة.
تأمل قوله : " فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس "... داعيا دون ملل ، راجيا دون كلل ، وظل على تلك الحال حتى بعد غروب شمس عرفة وأثناء سيره لمزدلفة ، وهو وقت ينشغل فيه الناس بالزحام إن لم يكن بالجدال واللغو من الكلام ،

لكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُعلمنا غير ذلك حيث أفاض ـ صلى الله عليه وسلم ـ وردفه أسامة بن زيد ، فجالت به الناقة وهو رافع يديه لا تجاوزان رأسه فما زال يسير على هينته حتى انتهى إلى جمع

(مزدلفة.)

العجلة من الشيطان

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أنا دعوة إبراهيم ، وكان آخر من بشَّر بي عيسى بن مريم ". (صحيح) انظر حديث رقم : ١٤٦٣ في صحيح الجامع .ومن العجيب أن بين دعوة إبراهيم : ؟ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] ? البقرة : ١٢٩] وبين إجابتها ببعثة النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يزيد على ألفي عام ،

فلماذا يتعجل المتعجلون ؟ ولماذا يقنط الداعون ، ولماذا يتذمرون ويقولون : دَعَوْنا دَعَوْنا فلم يُستجب لنا؟ مع أن الإجابة أكيدة فالخير عميم والرب كريم والفضل عظيم وحق الزائر مصون وتعبه غير مضيع.

متى تدعو في حجتك؟

قال ابن القيم [ت : ٧٥١هـ] رحمه الله في زاد المعاد:
"تضمنت حجته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ست وقفات للدعاء:
... *الموقف الأول :على الصفا
... *والثاني : على المروة
... *والثالث : بعرفة
... *والرابع : بمزدلفة
... *والخامس : عند الجمرة الأولى
... *والسادس : عند الجمرة الثانية."

وأحسن الظن بالله ، فالموقف موقف إجابة ، والساعة ساعة إجابة ، وكل ما في الموقف يدعو إلى الإجابة
،

فما أقربك اليوم من الله وأنت لا تشعر ، وما أحبك إليه وأنت لا تُبصر ، وما أعظم رحمته بك وأنت من القانطين ، ويكفيك أنه (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا أو أمة من النار من يوم عرفة). (صحيح) انظر حديث رقم 5796 : في صحيح الجامع.

ولذا كان من أعظم الذنوب أن يحضر عبد عرفة وهو يظن أن الله تعالى لن يغفر له ، وكان أول ذنب تقترفه فور النزول من عرفة أن يبادرك شك أن الله لم يغفر لك ، فإلى كل مريض أعيى أطباء القلوب وأحيا مجالس الذنوب : أبشر فقد حانت ساعة الخلاص.

قال عبد الله بن المبارك : جئت سفيان الثوري [ت : ١٦١ هـ] عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تذرفان ، فقلت له : من أسوأ هذا الجمع حالا ؟ فقال : الذي يظن أن الله لم يغفر له.

ورُوي عن الفضيل بن عياض [ت : ١٨٦ هـ] أنه نظر إلى نشيج الناس وبكائهم عشية عرفة ، فقال : أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل فسألوه دانقاً - يعني سدس درهم - أكان يردهم؟ قالوا : لا. قال : والله للمغفرة عند الله أهْوَن من إجابة رجل لهم بدانق!!

ولم لا يُستجاب دعاؤك وأنت وسط مئات الألوف من الألسنة الذاكرة والأفئدة الخاشعة ، ولابد أن يكون فيهم من هو مجاب الدعوة بإذن الله ، فتدخل في من قال الله فيهم : " هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ". (صحيح) انظر حديث رقم 2173 : في صحيح الجامع ،

فإن لم تُرحم بسبب عملك رُحِمتَ بسبب من حولك ، وإن لم يُغفر لك بضراعتك فقد كفاك الله بضراعة من جاورك.

كثُر خير الله وطاب!!

وقف النبي - صلى الله عليه وسلم - بعرفات وقد كادت الشمس أن تؤوب فقال : يا بلال .. أنْصِتْ لي الناس ، فقام بلال فقال : أنصتوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأنصت الناس ، فقال : معشر الناس .. أتاني جبرائيل عليه السلام آنفا فأقرأني من ربي السلام وقال : إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات وأهل المشعر وضمن عنهم التبعات ، فقام عمر بن الخطاب - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله .. هذا لنا خاصة؟ قال : هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة ، فقال عمر بن الخطاب - صلى الله عليه وسلم - : كثر خير الله وطاب. (صحيح) انظر حديث رقم : ١١٥١ في صحيح الترغيب والترهيب.

خذوها من غير فقيه

سمع عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - أعرابيا يقرأ : ؟ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ؟ [آل عمران : من الآية١٠٣] ، فقال الأعرابي : والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها ، فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه.

الله أكرم منك يا حكيم

كان حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ [ت : ٥٤هـ] يقف بعرفة ومعه مائة ناقة ومائة رقبة ، فيتصدق بها يبغي بها أن يُعتق الله رقبته من النار فيضجّ الناس بالبكاء والدعاء ويقولون : ربنا.. هذا عبدك قد أعتق عبيده ، ونحن عبيدك فأعتقنا.

يوم الصلح مع الله

قال رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إن الله تعالى يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة يقول : انظروا إلى عبادي أتوني شعثا غبرا ". (صحيح) انظر حديث رقم : ١٨٦٨ في صحيح الجامع.

(شُعْثا) أي متغيري الأبدان والشعور والملابس لقلة تعهدهم إياها ، (غُبْرا) ركبهم غبار الطريق من طول مشيهم وتعبهم فيه ، وهذه المباهاة دليل على أن الله قد غفر لهم ورفعهم إلى مقام أعلى من مقام الملائكة ، إذ لا تُباهى الملائكة المُطَهَّرون إلا بمن هو أطهر منهم ،

لذا تجد الوجوه غير الوجوه ، فالوجوه آخر ذلك اليوم ليست وجوه أول النهار ، فقد علاها النور وكساها البِشر والسرور ، ولذا لا يُرى الشيطان في يوم أخزى له من هذا اليوم ، لأن الذي فعله طيلة العام جعله الله اليوم هباء منثورا ونسفه من الأساس.

من نسي ذكّرناه

وجدد العهد مع ربك إن كنت قد نسيت عهدك الأول معه وأنت في عالم الذر ، واسترجع ذكريات الماضي لتستفيق من غفلة الحاضر ، فقد قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم : ـ

"إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة و أخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم :؟ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ؟ ". (صحيح) انظر حديث رقم : ١٧٠١ في صحيح الجامع ،

والحر الكريم لا ينقض العهد القديم ، والبَرُّ الوفي لا ينسى عهد من لا ينساه طرفة عين ، وكأن الله فرض عليك الحج لتعود إلى نفس المكان تذكيرا لك لتستحي من نقض عهدك ، بل لتجدده معلنا أنك ستظل وفيا لما تعلّمته أثناء حجك ، وستداوم عليه بقية حياتك بعد رجوعك إلى وطنك ، وإلا فمن لم يوفِّ بعهده اليوم عوقب بالصَّد غدا.

أفضل ما تقول يوم عرفة

قال النبي (: " أفضل ما قلت أنا والنبيون عشية عرفة : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ". (حسن (انظر حديث رقم : ١٥٠٣ في السلسلة الصحيحة.

قال الحسين بن الحسن المروزي : سألت سفيان بن عيينة [ت : ١٩٨هـ] عن أفضل الدعاء يوم عرفة ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فقلت له : هذا ثناء وليس بدعاء ، فقال : أما تعرف حديث مالك بن الحارث : يقول الله عز وجل : " إذا شغل عبدي ثناؤه عليّ عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين " ،

ثم قال : أما علمت ما قال أمية بن أبي الصلت حين أتى عبد الله بن جدعان يطلب نائلة:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني .... حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ..... كفاه من تعرّضه الثناء

ثم قال : يا حسين .. هذا مخلوق يكتفي بالثناء عليه دون مسألة ، فكيف بالخالق؟!

ولأن الثناء خير عند الله من الدعاء كانت سورة الفاتحة نصفين ، نصف ثناء ونصف دعاء ، ونصف الثناء هو المقدّم لأفضليته.

تنبيه الغافلين في عرفات

يا مسكين:

رقاب الصالحين من النار تُعتق و أنت بعد لا تدري ما حال رقبتك.
صحائف الأبرار تبيض من الأوزار و صحيفتك لا تزال مسودة من الآثام.
أليس لك سمع ، أو ما معك قلب ، و الله لو كان قلبك حيا لذاب حسرة و كمدا على ضياع المغفرة و العتق في عرفات .. آه لو كشف لك الغيب و رأيت كم ضيعت من الحسنات ، وكم من فرص المغفرة فات ، وكم وقت للإجابة ذهب عليك حسرات.

أخي..

اهتف مع الداعين .. نادِ مع المستغيثين .. ارفع أكف الضراعة هاتفا في استماتة:

يا كثير العفو عمن كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو الصفح عن جرم يديه

أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليه

ادع الله بما كان يدعو به علي بن موسى [ت : ٢٠٣هـ } بالموقف وقل:
اللهم كما سترت عليّ ما أعلم فاغفر لي ما تعلم ، وكما وسعني علمك فليسعني عفوك ،
وكما أكرمتني بمعرفتك فأشفعها بمغفرتك يا ذا الجلال والإكرام.

قلّد أبو عبيدة الخواص وهو يقول في الموقف بعدما كبر وهو آخذ بلحيته : يا رب .. قد كَبرتُ فأعتقني
وأنشد:

إن الملوك إذا شابت عبيدهمُ .... في رِقِّهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا سيدي أوْلى بذا كرما .... قد شبتُ في الرِّق فاعتقني من النار

ناج الله بما ناجاه به الصالحون يوم عرفة واهتف:

اللهم لا تمنعني خير ما عندك بسوء ما عندي ، اللهم إن كنت لم تقبل تعبي ونصبي ، فلا تحرمني أجر
المصاب على مصيبته ، اللهم من وصلته في هذا الموقف اليوم فلا تقطعه إلى أن يموت.

أمولاي إني عبد ضعيف أتيتك أرغب في ما لديك
أتيتك أشكو مصاب الذنوب وهل يشتكى الضر إلا إليك
فمُنَّ بعفوك يا سيدي فليس اعتمادي إلا عليك

ومع دنو الشمس من الغروب تتسارع ضربات قلبك ، وتتسامى روحك إلى أطهر حالاتها ، وتدعو الله بدعاء
مودِّع لم تدع بمثله في حياتك قط ، فما هي إلا دقائق معدودة وينفض موقف المغفرة وينقضي موسم العتق
، وأنت لا تدري بعد .. أمقبول أنت أم مطرود ؟! أرابح اليوم أم خسران ؟! فيرتجف قلبك خوفا ، وتنهمر
دموعك وجلا ، ولا تزال على تلك الحالة حتى تغرب الشمس.

الهدية لا تُردّ

وأُهدي إليك أخي المشتاق ما سبق وأهداه لك الفضيل بن عياض] ت : ١٨٦ هـ]يوم عرفة ، حيث وقف
يبكي بكاء الثكلى المحترقة وقد شغله البكاء عن الدعاء ، فلما كادت الشمس أن تغرب وهُرع الناس إلى
رواحلهم يعدونها ليمضوا..
عندها رفع الفضيل رأسه إلى السماء وقال:

واسَوْءَتَاهُ وَإِنْ عَفَوْت.

لسان حاله:

وصلوا إلى عرفات يبغون الرضا .... وبقيتُ منكسرا ببطن الوادي
رفعوا أكفهمو وضجّوا بالدعا ..... وبكيتُ من خجلي وذاب فؤادي

فاجعل كلمة الفضيل شعار سيرك إلى ربك لتُدلي إليه بعظيم خجلك ، وتعبر به عن شدة حيائك من كثرة ذنوبك وقبيح فعلك ، وإن عفا الرب وإن تجاوز وصفح.

مزدلفة:

وإذا غربت شمس يوم عرفة توجه إلى مزدلفة ، ويُقَال لها أيضا (جَمْع (لاجتماع الناس بها ، وقيل لجمع المغرب والعشاء فيها ، وهي المشعر الحرام الذي قال الله تعالى فيه : ؟ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ؟]البقرة : من الآية ٢٠٠ [،

وذلك حكم مسبق من الله ومعجزة بالغة منه فقد أخبر أن عرفات ستمتلئ عند الخروج منها عن آخرها وتضيق عن العدد المحدد لها حتى وكأنها تفيض ، فنفّذ أمر ربك ، واقض ليلتك -ما استطعت-متفرّغا للذكر والعبادة ،

مغتنما الدفعة الهائلة المكتسبة من الدورة الروحية المكثّفة أثناء الوقوف بعرفة ؛ مقتديا بنبيك ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي ظل يدعو ويذكر الله في مزدلفة حتى أسفر الصبح جِدّا (إسفارا بليغا (،

لتبدأ عندها في التحرك من المزدلفة بعد أن يكون نور التوبة والإيمان قد أسفر في قلبك مبددا ظلام الغفلة والعصيان كما أسفر النور على الأرض فبدّد الظلام.

قال تعالى : ؟ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ؟]البقرة : من الآية ١٩٩[، لكن لماذا الاستغفار؟! والجواب : سدّا للخلل الذي قد يكون بدر منك أثناء أداء عبادتك وخلال نسكك ، وسبب آخر لذلك:

أنك لست إلا واحدا من الناس ، فإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئا أو تستحق شيئا ، أو بدر لك أنك خير من فلان أو فلان ، أو حدّثتك نفسك بزهو أو غرور أو إعجاب ، فاستغفر الله وجدد إيمانك ، فإن الرضا عن النفس أخفى مكائد الشيطان

واستشعر وحدة المسلمين وأنت ترى هذا الجيش الجرّار الذي تزدحم به الأودية الفسيحة والأرجاء الممتدة ، مبتداهم عرفات ومنتهاهم مزدلفة ، وحدة في المشاعر ، ووحدة في الشعائر ، ووحدة في الهدف ، ووحدة في العمل ، ووحدة في القول ، فابكِ لذلك فرحًا وابتهاجًا ، وابتهل إلى الله أن يؤلف بين قلوبهم مدى الدهر كما ألّف بينهم اليوم ، ليكونوا كما وصفهم نبيهم : جسدا واحدا.

أخي أنا أنتَ وأنتَ أنا .... رباطُ العقيدةِ قد ضَمَّنا
فإمّا أُصبتَ بسهمٍ هناك ..... تلمّستُ جرحاً بقلبي هنا

ولماذا لا نكون كذلك ونحن كما قال إقبال:

ألم يبعث لأمتكم نبي يوحِّدكم على نهج الوئام
ومصحفكم وقبلتكم جميعا منار للأخوة والسلام
وفوق الكل رحمن رحيم إله واحد رب الأنام

إن رحلة الحج من مبتداها إلى منتهاها تصوير عملي لمعاني الأخوة الإسلامية السامية ، والحج مقدمة ضرورية لإحياء عقد الأخوة المقدس مع إخواننا المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها ، وتوطئة لابد منها تمهد الطريق لرفع الظلم عنهم.

أخي في العقيدة لن نيأسا ..... قريباً سيجلو الصباحُ المسا
وسوف نزفُّ إلى العالمين ..... بشائرَ تُنسي ظلام الأسى
فإنّا مع الفجر في موعدٍ .... عساه يكون قريباً ..عسى

وهذا الجمع سبق واستثار مشاعر عمر بهاء الدين الأميري فأطلق لخياله العنان في حج عام ١٣٨٨ هـ ، وقام ينادي على الحشود الهائلة متمنيا لو أنهم كما توجهوا إلى الكعبة توجهوا إلى قبلتهم الأولى متسلِّحين بسلاح الإيمان ، ممتشقين سيف الوحدة والإخاء ، محتمين بركن الله الذي لا يُضام ، فانبرى يحثهم على الزحف المقدّس ويرغِّبهم في الجهاد في سبيل الله ويقول:

يا حجيج البيت الحرام المُفدَّى .... وجِّهوا حشدكم إلى القدس سعيا
في فلسطين حفنة من يهود ......تتحدّى الإسلام حربا وبغيا
أيها الناحرون أكباش عيد الحج ..... وعيا لخطبه الضخم وعيا
لو نحرنا تفريطنا وبدَلْنا الحج .... مالا يُساق للقدس هديا
ونهينا ونحن في شدة الكرب ...... النفوس الغفلى عن اللهو نهيا
فإذا ما تحرر المسجد الأقصى ..... فحج حقٍّ وعيدٌ ولُهيا

ولا يريد الشاعر منا أن نلغي حجنا اليوم وننفر إلى فلسطين على الحقيقة ، لكنه يريد

أن يذكِّرنا:

كنتم بالأمس تطوفون بالبيت وثالث الحرمين بين أيديكم ، واليوم تطوفون بالبيت وبيت المقدس تحت قهر يهود ، وتقفون بعرفة بينما يحطّ أخس الأنجاس على باب مسرى رسول الله ،

وتنفرون إلى مزدلفة في وقت تنفر عصابات الشر من الصهاينة إلى ساحات المسجد الأقصى سعيا لهدمه وتنافسا على تدميره وحرصا على شرف إقامة الهيكل المزعوم على أنقاضه!!
وأما رمي الجمار:

فاقصد به الانقياد لأمر الله إظهارًا للرق والعبودية ؛ وليكن رميك الجمار في كل يوم من أيام منى بمثابة إصرار منك على رمي أهوائك وشهواتك وغفلتك وزلاتك بجمرات العزم والتوبة النصوح ، فهو رجم حسي يُراد به الرجم المعنوي ،

وانوِ به مواجهة عدوك الأول والأوحد في الحياة ، واقصد به الإصرار على عداوتك له وجعلها محور حياتك كلها ، وإظهار هذه العداوة بدلا من أن تكون باطنة فحسب ، دحرا لعدوك وإرغاما لأنفه حتى يقطع الأمل منك وييأس من خضوعك له ،
وبإعلانك هذا العداء يرضى عنك الله ويفرح ، فإن دعوتَه في هذه اللحظة كانت إجابتك مؤكدة ،

وقد سهّل الله عليك الطريق إلى هذا الكنز وحماك من أن تضيِّعه أو تنساه ، فعلّمك عن طريق نبيك أن تستقبل القبلة عقب كل جمرة وتدعو بما تشاء ،

فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يغتنم هذه الفرصة فيدعو عقب الجمرة الأولى والثانية دعاء طويلا طويلا أطول مما تتصور ، بمقدار قراءة سورة البقرة!!

وفي دعائك عقيب الرمي استعانة بسلاح الدعاء في كل موقف ، وإعلان افتقارك دوماً إليه سبحانه ؛ فبعونه فحسب يأتي النصر والغلبة في معركتك ضد عدو الله وعدوك إبليس.

والرمي جهاد ، يقول حافظ بك عامر:

"ذلك أن اليد المؤمنة يجب أن تكون يدا ممرنة على أساليب الجهاد التي أهمها وأعظمها الرمي لإصابة الهدف ، ومن هنا يقرر بعض الفقهاء أن الرمية إذا أخطأت لم تحتسب من العدد ويجب إعادتها حتى تصيب هدفها ، فهذا الرمي تحقيق لوصف اليد الحربية ، فلا يريد الإسلام يدا عاطلة ولا يدا مخطئة ولا يدا عاجزة ".

وأما ذبح الهدي:

فاستشعر أنك تقربه إلى الله تعالى لتفتدي به نفسك ، وارْجُ الله أن يعتق بكل جزء من هديك عضوا منك من النار ،

ورحم اللهُ الإمام القفَّال حين قال عن الهَدْي : " كأنَّ المتقرِّبَ بها وبإراقةَ دمائها مُتَصَوِّرٌ بصورة مَنْ يَفدي نفسه بما يُعادِلها ، فكأنه يبذُل تلك الشاةَ بَدَلَ مُهْجته ؛ طَلَبا لمرضاة الله تعالى واعْتِرافا بأن تقصيره يستحق مُهْجته." !

وعاهد ربك على تمام طاعته ولو أمرك بذبح ولدك وفلذة كبدك اقتداءً بالخليل إبراهيم عليه السلام حين أمره ربه بذبح ولده فلبى كلاهما وأطاع ، فكافأهما الله بذِبح عظيم ،

وما أجمل قول القائل يستفزّنا للتضحية ويستنفرنا للبذل والفداء:

من كالخليل يُرينا خيرَ تضحية .... جلّت مواقفها عن كل تبيين
صحا مع الفجر صوت الوحي يُفزِعه .... قم يا بني فصوت الله يدعوني
إني بذبحك قد أُلهمتُ يا ولدي ..... أمرُ السماء فهل تعصي وتُخزيني
فشمّر الطفل إيمانا بلا جزعٍ ..... جمِّع قواك أبي خُذْ تلك سكيني

وتذكّر أن)أعظم الأيام عند الله يوم النحر (. (صحيح) حديث رقم (١٠٦٤) في صحيح الجامع ، والجمهور على أن يوم عرفة أفضل ثم يوم النحر ، فمعنى قوله (أعظم) هنا أي من أعظم.

وأما المبيت بمنى:

فبعد التحلل من الإحرام ترجع إلى منى مرة أخرى لتستقر فيها ثلاثة أيام تذكر الله فيها وتأكل وتشرب. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أيام التشريق أيام أكل و شرب و ذكر الله ".(صحيح) انظر حديث رقم : ٢٦٨٩ في صحيح الجامع.

لماذا الأكل والشرب؟!

لذلك ثلاث حكم والله أعلم:

الأولى :أن الله تعالى دعا عباده إلى زيارة بيته فأجابوه ، وقد أهدى كل منهم إليه على قدر طاقته فذبحوا هديهم ، وقبله منهم بل وقدّم لهم منه ضيافة وأطعمهم مما تقربوا به إليه ، والضيافة ثلاثة أيام ، فأكرم الله زواره بالطعام والشراب ثلاثة أيام ،

وعادة الملوك أنهم إذا أضافوا أطعموا من على الباب من الفقراء والمساكين ، لذا قال تعالى : ؟ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ[؟ الحج : من الآية٢٨.]
سئل جعفر بن محمد الصادق]ت : ١٤٨هـ[: لم كُره الصيام أيام التشريق؟ فقال : لأن الحجاج في ضيافة الله ، ولا يجب على الضيف أن يصوم عند من أضافه.

الثانية :ما قال ابن رجب]ت : ٧٩٥هـ[: إشارة إلى أن الأكل في أيام الأعياد والشرب إنما يستعان به على ذكر الله تعالى وطاعته.

الثالثة :أنها أيام عيد تتحلل فيها من الإحرام ، لترتاح فيها بعد تعب وتتمتع بعد حرمان ، وتساعدك في ذلك لياليها التي يكتمل فيها ضوء القمر ، لتبعث إليك بهوائها اللطيف ونسيمها العليل الذي يزيل عنك كل مشقة وعناء.

وانوِ بذكر الله في هذه الأيام مخالفة أعراف الجاهلية ، فقد كان للعرب تقليد آخر في مِنى ، وهو عقد مجالس المفاخرة بعد الانتهاء من مناسك الحج ،

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول كان أبي يطعم ويحمل الحمالات و يحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ؟

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ؟]البقرة : من الآية ٢٠٠]،

فأمرنا الله بذكره والتحدث بنعمه بدلاً من ذلك ، وفي الآية كذلك تنبيه واضح بضرورة متابعة العمل والاستمرار في العبادة ، وتحذير إلهي مخيف من خطورة النكوص والانتكاس.

والأمر بالمبيت بمنى أمر عجيب غاية العجب..

إذ كيف تُضحّي بصلاة ثلاثة أيام في المسجد الحرام .. الصلاة الواحدة منها بمائة ألف صلاة لتبيت في منى؟! والجواب والله أعلم:

إن الله تعالى أدرى بك منك ، وأحرص عليك من نفسك ، فشرع لك ذلك حتى تحافظ على حرارة الإيمان وشحنة التقوى التي حصّلتها فلا تتسرب منك بالتنزه في الأسواق ومخالطة الناس.

إنه كذلك مشاركة إخوانك من سائر البلدان ومن مختلف الأجناس في حضور اجتماعات مصغرة أشبه ما تكون بفرق العمل أو اللجان المنبثقة عن مؤتمر عرفات السنوي الكبير ، وذلك بهدف تقوية الصلات وتعميق الروابط ومعرفة الأخبار وتفقد الأحوال وأخيرا : الخروج بالتوصيات.

يا حسرة النوّام

فرّط أحد السلف في حجته وما قام بحقها ، ولم يُفِق من غفلته إلا في منى ، فأنشد يقول:

بلغ المُنَى من بات في وادي مِنى .... غيري فإنّي ما بلغت مُرادي
وبكيت من ألم الفراق وشِقوتي .... فبكى الحجيج بأسره والوادي

فلا تكن أخي المشتاق أخاه في التفريط وصديقه في الغفلة وشريكه في الجرم ، وأدرك نفسك اليوم قبل أن يبكي عليك الحجيج غدا.

وأما طواف الوداع:

وما أدراك ما طواف الوداع ، إنها ساعة الفراق ، ولعل من حكمتها أن من لم يذق مرارة الفراق لم يدرِ ما حلاوة اللقاء ، فسائل نفسك : هل سيكون بعدها لقاء جديد أم فراق أبدي؟! لترتجف عندها كل خلية في جسدك وتهتف في ضراعة:

روحي ستُنزع مني موتي ببعدك عني
هل لي بعود قريب حقّق بفضلك ظني

نداء قلبك ودعاء روحك :

لئن أصبحت مرتحلا بشخصي .... فروحي عندكم أبدا مقيم

وهي وصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنا : " لا ينفرن أحد حتى يكون آخر عهده الطواف بالبيت ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٧٨٠٥ في صحيح الجامع ،

وكأنه يريد بذلك أن يفجِّر العاطفة في كل قلب لا زال قاسيا ، ويبعث الروح في أي صنم لا زال جامدا ، إنه كذلك إلقاء آخر نظرة على بيت الله الحرام لتبقى صورته ماثلة للعين وذكراه خالدة في النفس.

أخي المشتاق..

اشحن كل قواك لتوديع بيت الله ، فإنها لحظة حاسمة في حجتك ، فكن على وجل ، وألزم قلبك الخوف من الرد وعدم القبول ،

واعلم أنك قد تعرف علامات القبول ، فتبدو لك بوجه من الوجوه ، فقد تبدو في راحة قلبية وطمأنينة عجيبة ، أو في دمعات غزيرة وعبرات متوالية ، أو في عبء ثقيل أحسست أخيرا أنه انزاح عن صدرك ،

أو في شوق عظيم إلى الطاعات والقربات ، أو في كراهية شديدة لذنب كنت تعشقه وتفعله وأنت اليوم تبغضه وتركله.

هكذا حجوا فأين حجك؟!

... *كان أنس بن مالك - رضي الله عنه -]ت : ٩٣هـ[إذا أحرم لم يتكلم في شيء من أمر الدنيا حتى يتحلل من إحرامه.

... *حج مسروق بن الأجدع الهمداني الفقيه العابد صاحب ابن مسعود]ت62 : هـ[وهو من كبار التابعين ، فلم ينم إلا ساجدا على وجهه حتى رجع من الحج.

... *قال الربيع بن سليمان : حججتُ مع الشافعي]ت : ٢٠٤هـ[فما ارتقى شرَفا ولا هبط واديا إلا وهو يبكي.

... *قال حمزة بن ربيعة : حججنا مع الأوزاعي]ت : ١٥٧هـ[سنة خمسين ومائة ، فما رأيته مضطجعا في ليل ولا نهار قط ، كان يصلي فإذا غلبه النوم استند إلى القتب.

... *قال ابن وهب : رأيت الثوري] ت : ١٦١ هـ [ساجدا في الحرم بعد المغرب فما رفع حتى نودي للعشاء.

... •كان شريح]ت : ٧٨هـ[إذا أحرم كأنه حية صماء.

وقبل أن يدبّ اليأس إلى قلبك من إدراك هؤلاء ويستولي عليك القنوط من تحصيلهم أبعث إليك ببارقة أمل متّقِد وشعلة عزم مُستعِر على لسان الحارث المحاسبي:

"اجتهد ولا تيأس ، ولا تقل عند ذكر الصالحين : لولا ذنوبي لرجوت طريقة الصالحين ، فيُفتِّرك ذكر ذنوبك عن العمل ، فإن صاحب الحمل الثقيل أولى أن يجتهد في إسقاط ما قد حمل من المُخِف الذي ليس على ظهره شيء."

أطهر ميِّت!!

عن ابن عباس أن رجلا كان مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوقصته ناقته)كسرت عنقه) وهو محرم فمات ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم " : ـ اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه في ثوبيه ، ولا تمسوه بطيب ، ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا."

ويالها من خاتمة صالحة يتمناها كل مُحرم ، ويسعى إليها كل مشتاق ، فاعزم صادقا هذه العزمة ، وجدِّد مخلصا هذه النية ، فمن يدري لعلك تدركها كما أدركها الحافظ البرزالي]ت : ٧٣٨هـ[الذي كان كلما قرأ هذا الحديث بكى ورقّ قلبه ، فمات مُحرما في ثالث ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة لسان حاله :

روح دعاها للوِصال حبيبها ..... فسعت إليه تُطيعه وتُجيبه
يا مُدَّعي صدق المحبة هكذا ..... فعل الحبيب إذا دعاه حبيبه

رابعا : في ضيافة الحبيب

زيارة هي نزهة القلب وفرحة الفؤاد وفسحة الروح .. هي متعة الخاطر وفرصة الحياة ولذة الهناء .. هنا تنهمر الدموع ويشتد النحيب وينتفض الوجدان ، فالكل في شوق جارف وحنين عارم وشغف متحفز لزيارة رائد الإنسانية ومعلم البشرية وباعث المحبة.

وأما زيارة المدينة:

فتذكر وأنت متوجه إليها فضائلها التي تدهش العقل وتبعث الشوق وتسحر الفؤاد. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: ـ

" ... *إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها ". (صحيح) انظر حديث رقم : ١٥٨٩ في صحيح الجامع.
...فالمدينة بمثابة جحر الإيمان ومستقره ، وكلما ضعف أو تعب لجأ إليها ، فيتجدد فيها كما يتجدد نشاط الحية إذا دخلت جحرها بعد تعب البحث خارجه.

" *صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٣٨٣٩ في صحيح الجامع.
قال الإمام النووي : وهذا التفضيل يعمّ الفرض والنفل كمكة.

" ... *على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون و لا الدجال ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٤٠٢٩ في صحيح الجامع.

" ... *من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٦٠١٥ في صحيح الجامع ،

لذا كان الصحابة يكرهون أن يموتوا بغيرها ، ويسألون الله عز وجل أن يتوفاهم فيها ،
ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقول " : اللَّهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك " ، وفي رواية " : ارزقني شهادة في سبيلك وموتاً في حرم نبيك " ،

وقد استجاب الله دعاء عمر ـ رضي الله عنه ـ ، فاستشهد في صلاة الفجر في مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فما أحلاها من شهادة وأشرفه من وسام.

" ... *و الذي نفسي بيده لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها من هو خير منه .. ألا إن المدينة كالكير يخرج الخبث ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٨٠٠٤ في صحيح الجامع ؛

حتى أنّ الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز لما خرج من المدينة التفت إليها وبكى ، ثم قال لغلامه : يا مزاحم أخشى أن نكون ممن نفت المدينة؟!

" ... *لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٧٧٧٦ في صحيح الجامع.
" *من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبي ". (صحيح) انظر حديث رقم 5978 : في صحيح الجامع ، وهذا لم يرد نظيره لبقعة سواها ، وهو مما تمسك به من فضلها على مكة.

" •من أخاف أهل المدينة أخافه الله ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٥٩٧٧ في صحيح الجامع.

وقد روى هذا الحديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ ، وسببه أن أميراً ظالما من أمراء الفتنة قدم المدينة وكان بصر جابر قد ذهب ، فقيل لجابر : لو تنحيت عنه فخرج يمشي غير مكترث قائلا:
تعس من أخاف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال ابناه : كيف وقد مات؟! قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فذكر الحديث.

•ويكفي اشتمالها على خير بقاع الأرض بالإجماع ، وهي الموضع الذي ضم أعضاء النبي ـ صلى الله عليه

وسلم ـ ، ولذا سُمِّيت المدينة طيبة لأن بها أطيب الأجساد على الإطلاق. قال القاضي عياض [ت : ٥٤٤هـ] : ولا خلاف أن موضع قبره أفضل بقاع الأرض.

ألا قل لزوار دار الحبيب .... هنيئا لكم في جنان الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضا ..... فإنا عطاش وأنتم ورود

محبة عراقية

ذكر الحافظ ابن كثير [ت : ٧٧٤هـ] أنّ وفداً من العراقيِّين حَجُّوا سنة ٣٩٤ هـ وكانوا يخافون قطّاعَ الطريق ، ومعهما قارئان مِن أحسنِ الناسِ صوتاً ، وكان أميرُ العراق قد عزم على العَوْدِ سريعاً إلى بغداد من طريقِهم التي جاءوا منها ، وأن لا يسيروا إلى المدينة النبويّة ؛ خوفاً من الأعراب ، فشقّ ذلك على الناس ،
فوقف هذان الرجلان القارئان على جادّة الطريق التي منها يُرجع إلى المدينة النبويّة ، وقرءا : ؟ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ؟ [التوبة : من الآية١٢٠]،
فضجّ الناسُ بالبكاء ، وأمالت النوقُ أعناقها نحوهما ؛ فمال الناسُ بأجمعِهم والأمير إلى المدينة النبويّة ، فزارُوا وعادُوا سالمين إلى بلادهم."

في طرقات المدينة

مثّل لنفسك مواقع أقدام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند سيرك ، وتذكر مشيه وسعيه في طرقها ، وتأمل كيف أعلى الله قدره ورفع ذكره حتى قرنه بذكر نفسه ، وأحبط عمل من رفع صوته فوق صوته ، وتأسّف على ما فاتك من صحبته ، وضاع عليك من رؤيته ، ولا تفوّت على نفسك هذه الفرصة في الآخرة بسوء عملك ، فربما حيل بينك وبينه.

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: ـ
"إنه يُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي! فيقال :إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح : كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ". (صحيح) انظر حديث رقم 7870 : في صحيح الجامع.

صلّ في الجنة

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ". (صحيح) انظر حديث رقم : ٥٥٨٦ في صحيح الجامع.

قال بعض العلماء إن هذا الموضع بعينه الذي بين القبر الشريف والمنبر ينقل إلى الجنة ، وقيل إن العبادة فيه تؤدي إلى الجنة ، فاحرص في هذا الوقت المبارك والمكان المبارك على أسخن العبرات وأخشع الصلوات وأطول السجدات.

وتخيّل نفسك ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرتقي المنبر أمام عينيك وينظر إليك ثم يخطب فيك ، نعم يخطب فيك لتسمع حديثه مباشرة منه لأول مرة ، لا ينقله إليك أحد ، فتتربى تربية الصحابة ، وترقى رقيهم ، ففي هذه الروضة الجليلة تخرج الجيل الفريد الذي غيَّر مجرى الإنسانية.

وتوهم نفسك وأنت تسمع أحاديث نبيك ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنك تسمعها لأول مرة ، لتنزل عليك بلسما يشفي جروح الماضي ويمسح ذنوب الحاضر ويأخذ بيديك إلى الهداية في المستقبل.

ذكاء البخاري

وكان من ذكاء الإمام البخاري ونفاذ بصيرته أن كتب صحيحه في الروضة المباركة ، ولذا علّل الحافظ ابن حجر]ت : ٩١١هـ[تفضيل أحاديث البخاري على غيرها ببركة هذا المكان الشريف فقال:

"وإنما بلغت هذه الدرجة وفازت بهذه الحظوة لسببٍ عظيمٍ أوجبَ عِظَمَها وهو ما رواه أبو أحمد بن عدي عن عبد القدوس بن همام قال : شهدتُ عدّةَ مشايخَ يقولون : حوّلَ البخاريُّ تراجمه ـ يعني بيَّضَها ـ بين قبرِ النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنبره ، وكان يصلِّي لكلِّ ترجمة ركعتين."

اللقاء المرتقب

وأما زيارة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فالقلوب تشدو والأرواح تهفو والعيون تتلهف على مشاهدة آثار الحبيب ، إنه اللقاء الذي يفجّر في القلب أروع معاني الحب وأعظم درجات الفرحة التي لا تدانيها فرحة أي محب آخر بلقاء حبيبه بعد طول فراق وشدة اشتياق ،

فقف بين يديه ، وسلِّم عليه واعلم أنه يرد عليك السلام. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ما من

أحد يُسلم علي ، إلا ردّ الله علي روحي حتى أرد عليه السلام ". (حسن) انظر حديث رقم : ٥٦٧٩ في صحيح الجامع ،

وهذا في حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقاً إلى لقائه ، وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم: ـ
"من ذُكرتُ عنده فليصلِّ علي فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا) ." صحيح) انظر حديث رقم : ٦٢٤٦ في صحيح الجامع ، وهذا جزاء الصلاة عليه باللسان فكيف بالحضور لزيارته بالبدن؟!

ابسط قلبك وبايعه

تخيل وأنت واقف أمام قبره أنه يمد يده الشريفة نحوك ليبايعك ، فاستشعر جلال الموقف وهيبته ، ثم بايعه بقلبك إن فاتتك مصافحته بيدك ، فإن بيعة القلب أهم ، وهي محل نظر الله ،

وجدد له العهد على أن تظل وفيا لرسالته ، ماضيا في طريقه ، مستمسكا بسنته وإن تخلى عنها الجميع ، قابضا علي دينك ولو كان جمرا ، حاملا لواء الدعوة إليه أعظِم به أجرا ، باذلا روحك فداه ترجو له نصرا إلى أن تلقاه علي الحوض فتتعانقان!!

ليس الحب كلاما

علامات محبتك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم: ـ

أن يكون أعظم حب في حياتك:

عن عبد الله بن هشام ـ رضي الله عنه ـ قال : كنا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، فقال له عمر : يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم: ـ
لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك ،
فقال له عمر : فإنه الآن...
فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : الآن يا عمر.

أخي الحبيب...

ما أحوجنا إلى لحظة صدق كتلك التي عاشها عمر ، فنعقد فيها مع أنفسنا جلسة مصارحة نجيب فيها على هذا السؤال : أيهما أحب إلينا : رسول الله أم نفوسنا ؟ لنتحرك في ضوء الإجابة إما شكرا وامتنانا وإما توبة وبكاءً.

لماذا أقسم ؟

لقد أقسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الصادق في كل ما يقوله فلا حاجة إلى قسم ، فكيف إن أقسم ؟ فالقسم هنا تأكيد فوق تأكيد وجزم وتشديد.

هل نحرك دون نحره ؟

وإذا كانت النفس أغلى ما يمكن أن يضحي به الإنسان ، فإن محبة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تقتضي تقديم النفس رخيصة في سبيله كما فعل أبو طلحة في غزوة أحد ،

وأبو طلحة هو زيد بن سهل الأسود الأنصاري الذي شهد له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن صوته في الجيش خير من ألف رجل ، صوته فحسب خير من ألف ، فكيف به كله؟! وحين انهزم الناس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد جثا بين يدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونشر كنانته ، وقدَّم نحره أمام نحر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا:

لا يصيبك سهم من سهام القوم .. نحري دون نحرك

دعاءً منه بأن يجعل الله نحره أقرب إلي سهام الكفار من نحر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصاب بدلا منه ، وكأنه يقول:

قد صيغ قلبي على مقدار حبهم .... فما لحب سواه فيه متسع

أن تخشع لسماع ذكره:

... *كان جعفر بن محمد]ت : ١٤٨هـ[كثير الدعابة والتبسم ، فإذا ذُكر عنده النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اصفرّ لونه ، وما كان يُحدِّث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا وهو على طهارة.

... *وذكر مالك عن محمد بن المنكدر]ت : ١٣٠هـ[أنه قال : " لا نكاد نسأله عن حديث أبدا إلا بكى حتى نرحمه."

... •وقال عمرو بن ميمون]ت : ٧٥هـ[: " اختلفتُ إلى ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ سنة فما سمعته يقول : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أنه حدّث يوما فجرى على لسانه:

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم علاه كرب ، حتى رأيت العرق يتحدّر من جبهته ، ثم قال : هكذا إن شاء الله ، أو فوق ذا ، أو دون ذا ، ثم انتفخت أوداجه ، وتربّد وجهه وتغرغرت عيناه."
لسان حاله:
شوقي إليك مجاوزٌ وصفي .... وُدِّي وحُبي دون ما أُخفي
ما دار ذكرٌ منك في خلدي ..... إلا ملأتُ بأدمعي طرفي

... •وهاهو صفوان بن سليم]ت : ١٣٢هـ[الذي قال عنه الإمام أحمد : يُستشفى بحديثه وينزل القطر من السماء بذكره ، كان إذا ذُكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكى ، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

لسان حاله:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ..... ومثواك في قلبي فأين تغيب

... *وكان مالك بن أنس]ت : ١٧٩هـ[أشد تعظيما لحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان إذا جلس للفقه جلس كيف كان ، وإذا أراد الجلوس للحديث اغتسل وتطيَّب ولبس ثيابا جددا وتعمّم وقعد على منصته بخشوع وخضوع ووقار ، ويُبخِّر المجلس من أوله إلى فراغه تعظيما للحديث.

•وكان مالك رحمه الله قد قال في شأن أيوب السختياني]ت : ١٣١هـ[: "حجّ حجّتين ، فكنتُ أرمقه ولا أسمع منه ، غير أنّه إذا ذكر النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكى حتى أرحمه ، فلما رأيتُ منه ما رأيتُ وإجلالَه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتبتُ عنه." !

هؤلاء أناس رسول الله عندهم حاضر لا يغيب ، في القلب داره وفي الفؤاد قراره ، يمر عليهم ذكر اسمه فتهب رياح الشوق عليهم من كل جانب لتؤذن باتباع يورث في الجنة اللقاء ، وتُعلن عن اقتداء يمهد لشربة

مباركة من الحوض.

ومن عجبٍ أني أحنُّ إليهمُ .... وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ..... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

سرعة الامتثال والتلبية:

عن البراء - رضي الله عنه - قال : لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ، وكان يحب أن يوجه للكعبة ،

فأنزل الله تعالى : ؟ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ؟]البقرة : من الآية١٤٤]، فوُجِّه نحو الكعبة وصلى معه رجل العصر ، ثم خرج فمر على قوم من الأنصار يصلون فقال : هو يشهد أنه صلى مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وأنه قد وُجِّه نحو الكعبة ، فانحرفوا وهم ركوع.

سبحان الله .. ما أسرع الاستجابة وأعظم المحبة ... لم ينتظروا حتى يرفعوا رؤوسهم من الركوع بل انحرفوا على الفور.

أخي ... أخي...

الدرس هنا : ليس من تأجيل إذا قضى الله ورسوله أمرا.

... *إذا علمت يا أختاه أن الحجاب فريضة فرضها الله على نساء المسلمين ، فلا يرين أحد من غير محارمك ما أمرك الله بستره بعد اليوم.

... *إذا علمت حرمة الربا فلا تبيتن على فراشك الليلة قبل أن تطهر مالك.

... *إذا علمت أن عقوق الوالدين يحول بينك وبين دخول الجنة فلا تكمل قراءتك حتى تسترضيهما عنك وتطلب الصفح منهما.

... *إذا علمت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هَمّ بإقامة الصلاة و الذهاب إلى بيوت أناس لا يشهدون الجماعة فيحرقها عليهم ، فكيف يشتكي مسجد الحي من غياب أحد إلا وهو ميّت؟!

التسويف اللغم المؤقت ما التسويف سوى لغم مؤقت يبغي به الشيطان تحويل إيمانك إلى أشلاء فهل ستقع في الفخ ؟ أم ستهدم الصنم ؟ فإن صنم كل منا هواه ، فمن خالف هواه فقد هدم الصنم وقبض في الجنة الثمن.

تقديم ما يهوى على ما تهوى

بعد شهرين من حصار حصون خيبر ونفاد الطعام والزاد وضراوة الجوع وفتك الحاجة لجأ الصحابة إلى ذبح الحمر الأهلية لأكلها ، وبينما القدور تفور باللحم جاء أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على لسان مناد بعثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا النداء:

"إن الله ورسوله ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية"

فأُكفأت القدور وهى تفور باللحم.

عجبا .. لماذا ترك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين يذبحون الحمر مضيعين الاستفادة منها بركوبها إن كان أكلها قد حُرِّم؟!

والجواب :ليكون اختبار المحبة أشد وفضح المدعين أوضح ، ولم يكن بين الصحابة مدّعون بل محبون صادقون ومؤمنون مخلصون ، فلم تنقل كتب السيرة مخالفة واحد من الصحابة ، بل أمسوا جميعا يتضورون جوعا واللحم أمامهم ملقى على الأرض!!

أخي : ضع نفسك مكانهم ، واسأل نفسك عن حالك لو شهدت هذا الموقف لتقيس درجة محبتك وتحدد مقدار إيمانك.

اختبارات محبة

***قد ترجع إلى البيت ليلا متعبا منهك القوى تحلم باللحظة التي يمس فيها جنبك الفراش من شدة الجهد ...ثم تسمع المؤذن يؤذن لصلاة الفجر...فهل ستنجح؟!**

***قد تصبح في مزاولة الدنيا كعاصر الحجر يريد أن يشرب منه فتُسد أمامك أبواب الحلال ، ويغريك الشيطان بولوج أبواب الحرام ، والبيت محتاج والنفقات مرهقة ، والتبعات ثقيلة ، وبإشارة واحدة منك يسكن الحرام جيبك ويدخل بيتك...فهل ستنجح؟!**

***قد تدخل إلى امتحان و تتعسر في إجابة سؤال فتجد من يفتح لك ورقة الإجابة ، وغاب عنك الرقيب واحتجت إلى النجاح ... فهل ستنجح ؟!**

***قد يجهل عليك جاهل أو يحقد عليك سفيه ويبلغ الغضب منك ذروته ، فتهم أن ترد الإساءة بأختها ثأرا**

لنفسك وانتصارا لهواك ... فهل ستنجح ؟!

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : كنت ساقي القوم في منزل أبى طلحة ، فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مناديا ينادي : ألا إن الخمر قد حُرِّمت ، فقال لي أبو طلحة : اخرج فأهرقها ، فخرجت فأهرقتها ، فجرت في سكك المدينة.

قال ابن حجر : وفيه إشارة إلي توارد من كانت عنده من المسلمين علي إراقتها حتى جرت في الأزقة من كثرتها.

لم يتذرعوا بأنهم أدمنوا الخمر فسرت في عروقهم ، أو أن الإقلاع عنها صعب شديد .. يحتاج إلى وقت ، وإنما لبوا مسرعين واستجابوا فرحين ، مع أنهم كانوا قوما يتمنى الرجل منهم أن يدفن تحت شجرة عنب من شدة عشقه للخمر منشدا :

إذا متُّ فادفني إلى أصل كرمة .... تروى عظامي بعد موتى عروقها
ولا تدفني بالفلاة فإنني ...... أخاف إذا مت أن لا أذوقها

أعذار يصنعها الشيطان

يا من يتذرع....

بالنوم الثقيل ليتخلف عن صلاة الفجر

وبعموم البلوى ليأكل الربا

وبكثرة العيال وضيق ذات اليد ليقبل الرشوة

وبتعثر الزواج وعدم استطاعة الباءة ليطلق بصره

هلا اتخذت أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدوة وأسوة وأطعت أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون تلكؤ أو تردد.

سمعنا وأطعنا

... *عن زيد بن خالد الجهني ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة " ، فكان زيد يروح إلى المسجد وسواكه على أذنه بموضع قلم الكاتب ما تقام الصلاة إلا استاك قبل أن يصلي.

... *عن نافع عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه -قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :" لو تركنا هذا الباب للنساء " . قال نافع : فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات!!

... *عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله مُرني بعمل .قال- صلى الله عليه وسلم - : " عليك بالصوم فإنه لا مثل له " ، فكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لا يُلقون إلا صياما

... •كان أبو عبد الرحمن السلمي مُقرئ الكوفة وعلمها ، قرأ القرآن وجوّده ومَهَر فيه ، وكان يُقرئ الناس القرآن الكريم في المسجد ٤٠ سنة لأنه هو الذي روى عن عثمان بن عفان حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " ،
فقال عندها : فذلك الذي أقعدني هذا المقعد.

نشر دينه والدفاع عن سنته

واسمعوا إلي بطل من أبطال الصحابة وهو عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - وهو يخاطب المقوقس حاكم مصر وقد حاصره:

"وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا همّ فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا."

هؤلاء أناس صدق فيهم قول مصطفى صادق الرافعى:

كانوا أناسا إن عبتهم بشيء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة!!

خامسا : اقطف الثمرات

1.تربية أخلاقية عظيمة:

قال تعالى : ؟ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ؟]البقرة :من الآية١٩٧.[

... *ومن حسن الخلق أن تتمثّل صفات الحاج كما ذكر بعضها أبو حامد الغزالي]ت : ٥٠٥هـ[في قوله:
"فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وعلى غيره من أصحابه ، بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عز وجل ، وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتمال الأذى."

ومكافأة ذلك عظيمة عظيمة سبق وأن أعلنها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله:
"من كان سهلا هيّنا ليّنا حرّمه الله على النار ". (حسن) انظر حديث رقم : ٩٣٨ في السلسلة الصحيحة.

... *ومن حسن الخلق أن يكون الصبر شعارك ، فأنت في عبادة عظيمة اجتمعت فيها مشقة السفر ، وضيق المركب ، وكثرة الزحام ، وطول الطريق ، فلا تدافع من حولك ، وعليك بالرفق والسكينة تقتدي في ذلك بنبيك ـ صلى الله عليه وسلم-

الذي قال عنه قدامة بن عبد الله العامري ـ رضي الله عنه: ـ
"رأيتُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رمى الجمرة يوم النحر على ناقة له صهباء ؛ لا ضرب ؛ ولا طرد ؛ ولا إليك إليك ". (صحيح) انظر حديث رقم 2461 : في صحيح ابن ماجة.

... *ومن حسن الخلق أن لا تسوّد صحيفتك بالمنِّ والأذى ، فلا تتأفف ولا تتذمر ولا تردد أقوال العوام : " تعبنا " أو " الزحام كثير " أو " الحر شديد " وغير ذلك من عبارات التشكّي والتبرّم خوفا من ضياع أجرك.

•ومن حسن الخلق أن تترك الجدال ولو كنت محقا ،
لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ". (حسن) انظر حديث رقم : ١٤٦٤ في صحيح الجامع ،
وتأمل حال الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ الذي كان له فسطاطان أحدهما في الحِلّ ، والآخر في الحرم ، فإذا أراد أن يصلي صلى في الفسطاط الذي في الحرم ، وإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الذي في الحل ، فقيل له في ذلك فقال:

كنا نُحدّث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل : لا والله ، وبلى والله.

سنة مهجورة

إذا حدث أن جادلت أحدا أو خاصمته في الحج فما المخرج إلى محو هذه الزلة وما الطريق إلى تكفيرها؟!
لم يتركك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الميدان وحدك تجيب على هذا السؤال ، بل أعانك وقف إلى جوارك وأمدك بالجواب فقال:
"تكفير كل لِحاء ركعتان ". (حسن) انظر حديث رقم : ٢٩٨٦ في صحيح الجامع.

واللحاء هو المخاصمة والنزاع ، وكفارته : ركعتان تركعهما بعد الوضوء ، فإن ذلك يمحو الغِلَّ والعناد ، ويمسح الذنب عن الفؤاد ، ويورث الحلم والرشاد.

2.توحيد الأمة:

كأن المقصود من الحج هو اجتماع ممثلي الأمة من كل جنس ولون ، ومن كل حدب وصوب ، ليشهدوا هذا المؤتمر السنوي العالمي الذي يناقش هموم الأمة ، ويسعى في حلها ،
وعندما نتدبر حديث : (الحج عرفة) نستشعر أن جمع الأمة اليوم في مكان واحد من الأهمية العظمى بحيث إذا تخلف عنه أحد بطل حجه ،
ومن حكمة الله البالغة ورحمته السابغة أن جعل الحج فريضة لا تخضع لاختيار مسلم أو منع ظالم ، حتى يتكرر سنويا لوفود جديدة تأتي من كل بقاع الأرض ، لتتوحّد في هذه البقعة المقدّسة وتنجح في ما عجز عنه زعماؤها من توحيدها في أي مكان آخر.

3.التضحية في سبيل الدين:
أخي الحاج..

ضحيت بمالك لتحج فأنفقت الأموال الطائلة ، وضحيت بوقتك فتفرغت من أشغالك أياما عديدة لتنقطع لأداء المناسك ، وضحيت بصِلاتك بأهلك ووطنك ففارقتهم استجابة لأمر ربك ،
وضحيت براحتك فكابدت المشاق العظام أثناء رحلتك بين طواف وسعي ورمي ، ووقوف على الجبال طوال النهار ، ومبيت في الصحراء طوال الليل تفترش الأرض وتلتحف السماء ، وكل هذه التضحيات بذرت في قلبك حب التضحية لدينك
..فهل ستستمر التضحيات؟!

4.الاستسلام الكامل والعبودية المطلقة:

قال أبو حامد الغزالي [ت : ٥٠٥ هـ] واصفا بعض أسرار الحج:

"ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ، ولا تهتدي إلى معانيها العقول ، كرمي الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار ، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون الإقدام عليها إلا امتثالا للأمر ، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط."

فالحاج يستسلم لأمر الله موقنا أن الخير كل الخير فيه وإن لم يعلمه ، وينتهي عن ما نهى الله عنه وإن لم يدرك الحكمة منه ، فلا يعود يجادل في أمر الله ، ولا يتردد في تنفيذ تعاليمه ، ولا يتوانى عن اجتناب

نواهيه ،

والحج تدريب عملي على هذا المعنى:
البس هذا اللباس .. وامتنع عن أي لباس آخر .. ابتداء من هنا لا تقربْ زوجتك ..من هنا لا تقص أظفارك أو شعرك .. لا تقطع شجرة ولا تصطد طيرًا .. امش هنا .. هرول هناك .. طُفْ في هذا الاتجاه .. اشرب من هذا الماء .. تضلّع منه ولو لم تكن عطشانًا .. قبِّل هذا الحجر .. أمسك هذا الحجر .. ارجم هذا الحجر .. نم هنا .. صلِّ هنا قصرًا وجمعًا .. فرِّغ يوم عرفة لكل ألوان العبادات .. اجمع الظهر والعصر تقديمًا .. لا تصم هذا اليوم .. أخِّر المغرب مع العشاء ،

افعل كل هذا معلنا بلسان حالك أنك ستسير باقي أيام حياتك على أنوار قول الله تعالى:
?وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً ؟] الأحزاب : ٣٦.]

.5الجوهر لا المظهر:

قال الله عز وجل تعقيبا على آيات النحر : ؟ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ [? الحج : من الآية٣٧.]

إن هذه اللحوم والدماء لن ينال الله عز وجل منها خيرا ، فهو سبحانه أغنى الأغنياء عن خلقه ، وأنَّى له سبحانه وتعالى أن يحتاج أو يفتقر حاشاه ، وإنك حين تتأمل واقع المسلمين اليوم ترى أن المظاهر صارت هي الغالبة ،
فترى من الناس من يعتني بأداء الركوع والسجود لكنه عن جوهر الصلاة غائب ، تراه يصوم وهو مرائي ، ويتصدق وقد جمع ماله من الحرام ، ويذكر الله لكن بقلب غافل وجسد على المعاصي مجترئ ،
فيأتي الحج على هذا الواقع المرير فيزيله ، ويمسح صورة ذي الوجهين ، ويغرس في النفس طهارة الظاهر والباطن وعبودية القلب والجسد.

.6الفخر الحقيقي:

إن الحاج الذي يجهر بالتلبية ويفتخر بها ينبغي أن يفخر بانتمائه لدينه على الدوام ، فيعلنها صريحة واضحة أمام الناس:
أنا مسلم أعبد الله عز وجل وأدعو إليه ، أنا مسلم .. أفعل ما أمر الله به وأجتنب ما نهى عنه ، أنا مسلم .. لا أجبن أو أنزوي ولا أستحي أو أتوارى ، بل أبزغ بزوغ الشمس على الظلام فأقشعه ، وأطلع طلوع القمر

وسط الليل فأبدده ،

أنا مسلم .. قدوتي محمد لا أبو لهب ، نشيدي مصحفي ونشيد غيري من طرب ، وليلي سجدة أو ركعة لا شهوة أو غفلة تقضي من الله الغضب.

وهذا الفخر بالدين معناه التحلل مما سواه من الفخر بالنسب أو الجاه أو المال أو الولد ، والفخر بالدين يحبه الله ويكره ما عداه ، ولذا لم يجعله قاصرا على شريعتنا فحسب بل وفي شرائع من قبلنا. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: ـ

"انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام ، فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة ، فمن أنت لا أم لك ؟! قال : أنا فلان بن فلان ابن الإسلام ،
قال : فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن قل لهذين المنتسبين : أما أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النار ، فأنت عاشرهم ، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة ، فأنت ثالثهما في الجنة ".
(صحيح) انظر حديث رقم : ١٢٧٠ في السلسلة الصحيحة.

.رب الشهرين واحد:

يلتزم المُحرِم بالامتناع التام عن محظورات الإحرام ، فيتجرد من المخيط , ويترك الطيب ، ويمتنع عن حلق شعره ، ويتخلى عن الرفث ومقدمات النكاح , ويستجيب لذلك كله دون تردد ، ولا تحدثه نفسه أن يتجاوز أو يخالف.

إنها مدرسة الحج تُربِّي كل حاج كذلك على تحمل تبعات خطئه وعواقب تقصيره ، فتوجب الفدية على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام ، لتغرس في قلب كل محرم الشعور بالمسؤولية وضرورة تحملها في الحج وبعد الحج ، ليتخرّج من هذه المدرسة وبين يديه شهادة نضجه وكماله واستوائه ورشاده.

وعجيبٌ هو أمر بعض إخواننا الحجاج!! فالذي حرم على المحرم الطيب هو الذي حرّم عليه أكل الربا ، والذي حرّم الرفث ومقدمات الجماع هو الذي حرّم النظرة الحرام ، والذي نهاه عن لبس المخيط هو الذي نهاه عن لبس الذهب والحرير ، فما بال البعض يطيعه هنا ويعصيه هناك!! ويذكره الآن وينساه سائر أيام حياته!!

.8الدوام علامة القبول:

قال تعالى : ؟ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً ؟ { سبأ : من الآية١٣. }
قال ابن رجب]ت : ٧٩٥هـ [: " لما قيل لهم هذا ، لم تأت عليهم ساعة إلا وفيهم مصلّ ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوم حتى تتورم قدماه قائلا:

"أفلا أكون عبداً شكوراً " ،
وكان بعض السلف إذا وُفِّق لقيام ليلة من الليالي أصبح في نهارها صائماً ، ويجعل صيامه شكراً لله للتوفيق للقيام."

فهل فهمت أخي الحبيب ما أراده منك ابن رجب؟!

يريدك أن تشكر ، وشكرك بأن تستمر في طاعتك وعبادتك بعد حجك لا تنقطع ، وهذا الشكر العملي هو مفتاح التوفيق للمزيد ، ونسيانه سبب المنع بعد الهبات والسلب بعد العطاء ،

وهو ما سبق وحذّرك منه بشدة ابن حزم فقال:

إهمال ساعة يفسد رياضة سنة.

نشيد الرجوع

كان دعاؤه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا رجع من غزو أو حج أو عمرة:
آيبون تائبون عابدون ساجدون ، لربنا حامدون. (صحيح) انظر حديث رقم : ٤٧٦٩ في صحيح الجامع ، وحديث رقم : ٨٥١ في اللؤلؤ والمرجان.
)آيبون (لكنه ليس رجوع الجسد إلى الوطن بل رجوع القلب إلى السكن ، في رحاب الله وعلى هَدْي مصطفاه ،
وعنوان رجوعنا) : تائبون (، وفي كل حركاتنا وسكَناتنا) عابدون (، ودليل صدقنا) : ساجدون (، ونحن في كل ذلك نقِرُّ ونعترف بأنه ليس لنا من الفضل شيء ، بل الفضل كله لله فتهتف قلوبنا قبل ألسنتنا) : لربنا حامدون.(

فأكثر أخي الحاج من ترديد هذه الكلمات في طريق رجوعك ، وأطلق بها لسانك طويلا طويلا ، لتملأ بها قلبك ، وتذكّر بها نفسك ، وتجدّد بها عهدك ، وتُسعِد بها ربك ، وتجعل بها أنف شيطانك في التراب.

.9ارجع أكثر تواضعا:

كان من هديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه (كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شَرَف من الأرض). (صحيح) انظر حديث رقم : ٤٧٦٩ في صحيح الجامع ، وحديث رقم : ٨٥١ في اللؤلؤ والمرجان.

قال الحافظ العراقي]ت : ٨٠٦هـ[: مناسبة التكبير على المرتفع أن الاستعلاء محبوب للنفس وفيه ظهور وغلبة ، فينبغي للمتلبس به أن يذكر عنده أن اللّه أكبر من كل شيء.

والمعنى أن:

... *الله أكبر فضلا وكرما من فضلكم وكرمكم ، فلئن قدمتم جهودكم وأموالكم فقد قدّم غفرانه ورضوانه وجنته.
... *الله أكبر قدرا وعظمة من أن تليق به عبادتكم وإن عظمت في عيونكم ؛ فلو أن كل من خُلق من لدن آدم إلى يوم القيامة كانوا على تقوى أعظم نبي ما زاد ذلك في ملكه شيئا.

... *الله أكبر نِعَماً من أن يحيط بها مخلوق فيشكره أو يحصيها أحد فيؤدي حقه.

... *الله أكبر فتواضعوا .. الله أكبر فعظّموا أمر ربكم .. الله أكبر فاعلموا قدر نفسكم .. الله أكبر فلا يغرركم عملكم .. الله أكبر فارحموا المذنبين وأسعفوا المخطئين وأعينوا الذين استزلهم الشيطان دون عتاب أو تكبّر أو تعيير.

.10قيمة الوقت:

نتعلم ذلك من شعائر الحج ، فكل عبادة لها وقت محدد ، وقد يكون الوقت أساس قبول العبادة ، فمن فاته الوقوف بعرفة مثلا فسد حجه ، ولزمه العودة من العام المقبل ،
ومن بقي في منى حتى غابت شمس ثاني أيام التشريق وجب عليه أن يرمي الجمار الثلاث ثالث أيام التشريق على الرأي الراجح ، ومعنى هذا أن اللحظة لها ثمن ، وقد تدخل الجنة بفارق لحظة واحدة أطعت الله فيها ، وقد تلج النار بعصيان لحظة واحدة رجّحَتْ كفة السيئات ،

فيغرس ذلك في نفسك قيمة الوقت ، وأن حياتك ليست سوى بضعة أنفاس ، فلا تعود تُضيِّع أوقاتك بعد اليوم سدى ، بل تحرصُ على ما ينفعك ولا تصرفُ عمرك في ما يضُرّ.

إنها تربية الحاج كذلك بعد رجوعه من حجه على أداء الأعمال في أوقاتها ، وتعويده الدقة والالتزام ، والانضباط في المواعيد ،

إنها كذلك سرعة تنفيذ الأعمال الكثيرة في وقت قصير وسط ظروف صعبة وبدقة متناهية ، فأعد حساباتك من اليوم ، وأصلح ما فسد من حالك ، وغيّر ما ساء من عاداتك ،

واستثمر هذا الموسم الجليل في تحويل النصوص والأشكال التعبدية إلى واقع عملي وأثر تربوي وسلوك تمشي به على الأرض.

بشراك

أخي الحاج..

لقد وُلدت ميلاداً جديداً ، وتركت وراءك ركام الذنوب ، وودّعت ميراث العمر من الآثام ، فليكن حجك أول فتوحك ، وتباشيرَ فجرك ، وإشراقَ صبحك ، وبدايةَ مولدك ، وعنوانَ توبتك ، ونقطة التحول الفارقة في حياتك ،
واستأنف عملك من الآن ، فقد كفاك الله ما مضى ، ولم يبق إلا أن تصلح ما بقي ، واعلم أنه ليس من شروط قبول حجك العصمة بعده ؛ فليس من شرط ولي الله العصمة كما قال ابن القيم ، ولا أنك ستتخلص بحجتك من بشريتك وتعرج في سماء الملائكة ، فليس ذلك من مقدور أي من البشر ،

لكن حسبك أنك ستبدأ جولة جديدة من المعركة وأنت خفيف الظهر من معاصيك ، فتستأنف حياتك برجاء كبير وعزم جديد وإقبال على الله عظيم.

إياك ثم إياك

ابتدأك بالفضل فدعاك إلى زيارته واستقبلك في بيته ، وأنعم عليك بمغفرته
ثم بعد أن عقد الصلح معك ترجع لمعاداته!!

وبعد أن عاهدته على طاعته تغدر!! وبعد أن وعدته باستقامتك تنكث!!

رجمت إبليس ثم تعود لصداقته!!

أنت الآن أشبه ما تكون بالملائكة ثم تقلّد الشياطين!!

اغتسلت من ذنوبك بدمعك ثم تُلطِّخ إيمانك بوِزرك!!

أتعيد سيرتك الأولى من المعاصي والآثام؟

وقد مُحيت عنك ذنوب عشرات الأعوام؟!

لو لم تذُق حلاوة الإيمان لعذرتك ، لكنك عرفتها فكيف تنكص؟!

أشْهَدْتَ الله على نفسك أمام الملأ أنك عليه مقبل فكيف تدبر؟!

اعتدت القرب من الحبيب فكيف الصبر على الفراق؟!

أصعب الفقر ما كان بعد غنى

أوحش الذل ما حصل بعد العز

أقبح الذنب ما جاء بعد التوبة

الموجز في ثلاث كلمات:

دواؤك في دوامك

تذكّر أنك قريب العهد بربك فقد عدت بلا ذنوب

فابتسم لحياتك الجديدة

واستنشق عبير الإيمان واملأ به صدرك

وتحرر من أسر الكآبة والأحزان إلى الأبد

أنت الآن في أطهر حالاتك وأدناها من القبول

فاحرص على أخشع الدعوات وزينها بالدموع

وتعمّدني بدعوة بظهر الغيب ..أن يجمعنا الله في الفردوس

إنه ولي ذلك والقادر عليه

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه حامدا مستغفرا

الفقير إلى عفو ربه ورضاه



خالد أبوشادي